قصص الرحالة والمكتشفين

٣



عبد اللطيف البغدادى

دار المعارف

عبد اللطيف البغدادى

قصَصُ الرّحّالة والمكتشِفين

٣

عبد اللطيف البغدادى

بقلم

عبْد السَّلام العشرى

الطبعة الرابعة

دار المعارف

تنفيذ الغلاف والمتن
بالمركز الإلكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

من بغداد

كانَ الشيخ مُوَفـق الديـن عبـد اللطيـف البغـدادى ، عالمًا عظيمًا وطبيبًا ماهرًا ، طافَ بالبلادِ الإسلاميةِ الواسعةِ ، وانتهى بـه المطـافُ إلى مدينةٍ كبيرةٍ فـى شمالِ الشـام تُسمى «حلـب» فـى العـامِ الخـامسِ والعشرينَ والستمائة منَ الهجرة[1].

وكان الشيخُ يجلسُ للدرس ، فيزدحمُ الطلابُ حوله ، وهـو مُتدفـق فى كلِّ فن ، يفيضُ بعلمهِ الغزيرِ ، ويصـفُ للمرضَـى ألـوانَ الـدواء المفيـدِ ، ويعلِّـم تلاميـذَه فنـونَ الطـب والعـلاَج ، وبأيديـهم أوراقُـهُم وأقلامُهُم ، حَريصينَ على تدوينِ كل مَا يتلفَّظُ به .

وكثيرًا ما كانَ موفق الدين يتحدثُ عـن مصرَ فى دُروسه ، ويشيرُ إلى عَجَائبها وغرائبهَا ، ودورهَا وقصورهَا ، حتى اشـتد شـوقُ الطـلابِ إلى حديثٍ طويلٍ عنها ، وَرجوه هذَا الحديث فوعدَهم به .

وذاتَ صباحٍ ، أخذَ الشيخُ مجلسَه ، والتفَّ حَوله الطـلابُ ، مُعَلقـين أبصَارهم بفَمِهِ ، وأسماعَهُم بلفْظِـهِ ، وبعـدَ أنْ حمـدَ الله تعـالى ، وصلَّـى على نبيه صَلى الله عليه وسلم قالَ :

سَـأُحَدثكم اليـومَ يـا أبنـائى - كمـا اتفقنَـا - عـن مصـرَ وعجَـائب مصرَ .

---

(١) ١٢٢٧ ميلادية .



ولامستَ هذه الكلماتُ أسماعَ الطلاب ، فعلَت وُجُوهَهم ابتساماتُ السرور ، ونظر بعضُهُم إلى بعضٍ ، ليرى آثارَ تلك الفرحَة بما سيحَدثهم به الشيخُ عن مصرَ التى يحبونها ، ويودّونَ أن يسمعُوا كلَّ شيءٍ عنها ؛ وابتسم الشيخُ لسرور طُلابه ثم قالَ :

فِى مصرَ نهرُ النيل يا أبنائِى ، إنه النهرُ العظيمُ ، ينبعُ من جبالِ القمر ، وراءَ خط الاستواء بإحْدى عَشرةَ دَرَجَة ، ثم يتدفقُ من بلادِ السودان مُنحدِرًا إلى مصرَ ، ولا يزالُ يجرى حتى يَصُب فى البحرِ الملح الذِى يُسمى بحر الروم ، وله أثرٌ عظيمٌ فى جَوِّ مصرَ وأرضهَا وأهلهَا ، وقدرةٌ على تغييرِ أَحْوالها كما يشَاء .

ولقد شاهَدت كثيرًا من الممالكِ ، ورأيتُ مُدنَها وقراهَا ، ونباتَها وَحَيوانها ، واتصلْتُ بجميع مَنْ فيها ، فلم أر أعجبَ مِنْ مصر ، ولا أغربَ مما شاهدت ولستُ فى تلكَ الديار ، ولكن ، ألا ترونَ أن نبدأَ مِنْ بغداد ، فلعلكُم تودونَ أن تتعرفُوا على حياةِ شيخِكم وجِهاده ، وسَعيه وَراء العلمِ والمعرفةِ ؟ فانبعثت أصواتُ الطلابِ منَ الحلقة :

نعم يا شيخَنَا العزيز . نبدأُ مِنْ بغداد . كُنَّا سنطلبُ ذلك قبلَ اليوم . مِنْ بغداد ، ولو أننا فى شوقٍ شديدٍ إلى مصرَ !

وابتسمَ الشيخُ لحماسةِ طُلابه ، وحُبهم فى معرفةِ حَيَاته ، والإحاطةِ بتلكَ الرحلةِ الطويلةِ منْ مبدئها ، وهزَّ رأسَه كأنه يذكرُ شيئًا عزيزًا عليه حينما لفظَ كلمةَ بغداد ؛ ثم قال : مِنْ بغداد يا أبنائى ، من أولِ الرحلةِ نبدأ .

فى بغدَاد عاصِمَة الخلافةِ الإسلاميةِ ، التى بناهَا المنصورُ ثانِى خُلفاء العباسيينَ على الشاطئ الغربى لنهرِ دِجْلة ، منذُ أربعمائةٍ وثمانينَ عامًا ، وفى دربٍ من دُروبهَا يُسمى «درب الفَالُوذَج» كانت تقومُ دارٌ فسيحةٌ يقصدهَا الطلابُ من كلِّ ناحيةٍ ، ليستمعُوا إلى دروسِ الحديثِ والتفسيرِ وعُلومِ القرآن، منَ الشيخِ يوسف بن محمد، العالمِ التقى . وكانتِ الدارُ تشهدُ كلَّ يومٍ وفودًا لا تنقطعُ من أولئكَ الطلاَّب ، ومن أصحابِ المشكلاتِ الذينَ يلتمسونَ لها عندَ الشيخِ حلولاً تتفقُ مع الشرعِ والدينِ ، والشيخُ مُجِدٌّ فى دُروسِه ، فرحٌ بطُلَّابه ، وبمنْ يَسْألونه كلَّ يومٍ عن حلولٍ لتلكَ المشكلاتِ الكثيرة .

وفى يومٍ من أيـامِ العـامِ السـابعِ والخمسـينَ بعـد الخمسمائة مـنَ الهجرة[1]، شَهدت الدارُ وليدًا للشيخِ ، فرحَ أبُوه أشــدَّ الفـرحِ، وشـاركه طلابُهُ الابتهاجَ بتلكَ النعمة ، وقدَّموا له التهنئاتِ الرقيقةَ ، كما أَقْبَـلَ عليه كثيرٌ مِنْ إخوانه وأحبَّائِه ، واقترحَ بعضُهم أسماءَ لهذا الوليد ، ثــم انتهوا إلى أنْ يُسموه مُوَفق الدين عبد اللطيف .

- اسمٌ جميلٌ يا سيدى الشيخ !

- هكذا صنعُوا يا بنى !

وابتسم الشيخُ الذِى لا تفُوتُه اللَّمْحةُ ، لأنه لم يكنْ قـد مُنِـحَ شـيئًا مِنَ الجمالِ ، وإنْ كانَ قد عـُوَّضَ عنـه بعلـمٍ غزيـرٍ ، وعبـارةٍ مليحـةٍ حَبَبت فيه أصْدِقَاءَه وعَارفيه ، ثم قالَ :

ونشأَ الصبى يا أبنائِى فى رعايةِ وَالده ، الـذِى أحبـه حبًّـا شـديدًا ، وأخذَ يعد له الأيامَ والليالِي ، ليكـبرَ فيعلِّمـه القـرآنَ والحديـثَ وعلـومَ الدين ، ليكونَ مِثله ، يحفظُ أَحَـاديثَ الرسولِ صلَّى الله عليـه وسـلم ، فيفُوزَ فى أُخراه بالجنةِ ، وينالَ فى دنياه رعايةَ الله ونعمته ورضَاه .

وأخذَ الصبى يَكْبر فى هذَا الجو الدينــى العلْمـى ، وتفتحَـتْ عينَـاهُ على هَذِه المدرسةِ وعلومهَا وطلابهَا ، وَمَا يـراهُ مـن البحـثِ والـدرسِ والمناقشةِ ، والوصولِ إلى الحقَائِقِ ، فاعتـادَ الجـد والمثـابرة ، وسَار فـى الطريقِ التى رسمهَا له أبـوه ؛ يسـمعُ بأذنيـه ، ويفـهمُ بقلبـه ، ويقـرأُ الكتبَ المؤلفةَ فى كلِّ فَنٍّ ، فَيجد فيها لذةً ومتعةً .

---

(١) ١١٦٢ ميلادية .

وَكَبر عبدُ اللطيف ، وانتقلَ من علمٍ إلى علمٍ ، ومنْ دراسةٍ إلى دراسةٍ أرقى منها، وسمعَ منَ العلماءِ الذينَ كانت تمتلئ بهم بغداد، وجدَّ واجتهدَ ، حتى اطمأن شيوخُه إلى إحاطته بتلكَ العلوم ، فمنحُوه شهاداتٍ تدلُّ على أنه قَدْ أتمها ، وتُجيز له أن يجلسَ للدرسِ والتعليمِ كَمَا يجلسونَ . ورأى عبدُ اللطيف أنه قد أصبحَ مثلَ هؤلاءِ الذينَ يمتازونَ بمكانةٍ عظيمةٍ فى بغداد ، ولكنه يحسُّ بأن العلمَ الذِى فى صدْره لم يزلْ قليلاً ، لأنه يعتقدُ أنَّ العلمَ لا نهايةَ له ، ويعرفُ أن بلادَ الخلافة الإسلامية الكثيرة تمتلئُ بالعلماءِ الذينَ يجتذبهم الأمراءُ بجزيلِ العطاء ، بعد أن أصبحَ فى كل بلدٍ أميرٌ مُستقل ، يريدُ أن يكونَ فى مظهرِ خليفة بغداد وأكثر ، فقررَ أن يذهبَ إلى إمَارةٍ من تلكَ الإمَارَاتِ الواسعةِ . وشدَّ الرحالَ إلى الموصلِ الواقعةِ فى شمالِ بغداد ، عام خمسمائةٍ وخمسةٍ وثلاثينَ منَ الهجرة[1] ، ووصل إليها بعدَ أن قطعَ أربعةً وسبعينَ فرسخًا ، وأسرعَ إلى شيوخهَا وعلمائهَا يستمعُ إليهم ، ويبحثُ عندهُم عنْ علمٍ جديدٍ . لكنَّ الفتىَ لم يجِدْ فى الموصلِ ما جاءَ منْ أجله ، وعرف أن هؤلاء العلماء لا يزيدون كثيرًا على علماء بغداد ، وكانَ ما لديه من الإجازاتِ كفيلاً بأن يضعَه فى صَفِّهم . وسمعَ به أميرُ الموصل ، فاستدعاه وعرضَ عليه منصبَ التدريسِ فى مدارسها ، فاختارَ مدرسةً منها ، وبدأ يزاولُ هذه المهنةَ الفاضلةَ ، وكان دائبَ البحثِ والاطلاع ، يحسُّ أنه لا يزالُ ناقصَ العلمِ والمعرفة ، وإنْ كانَ بيدهِ تلكَ الإجَازات العِلْمية الكثيرة .

---

(١) ١١٨٩ ميلادية .

تأكَّدَ الفتى أن بُغْيته فى الموصلِ لم تتحقَّق ، وتذكَّرَ أنه خرجَ للتزودِ منَ العلمِ ، لا للعملِ من أجْلِ المالِ ، فعزمَ على أن يغادرَ تلكَ البلادِ إلى غيرهَا ، وَقررَ أن يتجهَ إلى الغربِ ، ويقصدَ دمشق التى نشأت فيها الدولةُ الأمويةُ ، ويتمتعَ برؤيةِ المسجدِ الأُموى الذى يُعَدُّ من عجَائب الفن ، ويشاهدَ تلكَ البلادِ التى اشتدَّ فيها النزاعُ بينَ المسلمينَ والفرنج ، وأصبحَت مسرحًا لجهادِ البطلِ صلاحِ الدينِ الأيوبى ، الذى وهبَ نفسَه لحرب الفرنج وطَرْدهم منَ المشرقِ ، وكانت سنُّ الفتى حينذاكَ ثمانيةً وعشرينَ عامًا .

دخلَ عبدُ اللطيف دمشق ، وأسرعَ إلى مجالسِ علمائهَا الذينَ سمعَ عن علْمهم وفَضْلهم ، واحترامِ الناسِ لهم ، ولكنَّ بُغْيَتَه فى دمشق لم تتحقَّق ، كما لم يجدهَا فى بغدادَ والموصل ، فعكفَ على القراءةِ والتأليفِ ، وأخذَ يُسَلى نفسَه بما يَدُورُ بينَ هؤلاءِ العلماءِ منَ التنافس ، وتعصُّب الناس لفريقٍ على فريقٍ ، ولكنْ أيستمرُّ عبدُ اللطيف بدمشقَ يقرأُ ويؤلف ؟! أيظلُّ فى دمشقَ ، وهناكَ مِصرُ الزاخرةُ بالعلماءِ والأدباءِ ، وليسَ بينه وبينها إلا ثمانيةَ عشرَ يومًا فقط ؟!

وارتفع صوتُ المؤذن يعلنُ صلاةَ الظهر ، فقام الشيخُ ، وقامت الحلقةُ ، ثم قُضيت الصلاةُ ، فأسرعَ الطلابُ إلى أمَاكِنِهِمْ ، والتفُّوا كما كانُوا ، يذكرونَ أنَّ وقتَ الغداءِ قد حانَ ، فتقدمَ منهم الشيخُ مبتسمًا وقال : موعدنَا غدًا فى الصباحِ إن شاءَ الله .

الإذن

ما كادَ الصباحُ يشرقُ ، حتى انتظمَت الحلقةُ حولَ الأستاذِ المحدِّثِ البارعِ ، وبعدَ أنْ حيَّاهم وحمدَ الله وصلَّى على رسُوله ، بدأ الحديثَ قائلاً :

أرادَ عبدُ اللطيف أن يتصلَ بالبطلِ صلاحِ الدينِ ، الذي يجاهدُ الفرنجَ



بالشامِ فى ذلكَ الوقتِ ، ليهَنئه ببطُولته ، ويستأذنَهُ فى دخولِ مصرَ، وكانَ صلاحُ الدين قد انتزعَ بيتَ المقدس منْ أيدى الفرنج ، فى عام خمسمائة وثلاثة وثمانين من الهجرة[1] ، بعدَ أن استمرت فى أيديهم إحدَى وتسعينَ سنةً ، فأظهرُوا الجزعَ الشديدَ لفقدهَا ، وطافَ بهم جماعةٌ منهم ، يستصرِخُونهم ، ويحرضُونهم علىِ قتالِ صلاحِ الدين ، ولم يزالُوا بهم حَتى اشْتدت حماستُهُم ، ورأوا أنْ يثأروا للمقدسِ بفتحِ عَكًّا على ساحل الشامِ ، وجمعُوا جموعَهُم وحاصروها بعدَ سنتين منْ فتحِ القدس ، فأسرعَ إليهم صلاحُ الدينِ ، واشتدَّ القتالُ ، وتساقطَ القتلى حتى غطَّت جثَثُهم وجهَ الأرضِ ، وامتلأَ الجوُّ برائحةِ الموتى ، ومرضَ صلاَح الدين لهذَا الجوِّ الخَانِق ، وأُشير عليه أن يبتعدَ عنْ عَكَّا ، فرحلَ إلى مكانٍ آخرَ ، بعد أن أوصَى مَنْ بها منَ المسلمينَ أن يستميتُوا فى الدفاعِ عنها . وعَلم الفرنجُ برحِيله فشدّدُوا عليهَا الحصارَ ، ولم يطل المرض بصلاحِ الدين ، فعادَ إليها ، وعسكرَ قريبًا منها استعدادًا للمعركةِ الفاصِلَة . فى ذلكَ الوقتِ العصيبِ[2] . وصلَ عبدُ اللطيف إلى معسكرِ السلطانِ صَلاح الدين ، والأفكارُ حائرةٌ فِى ذِهنه ، لأنَّ السلطانَ فى شغلٍ شاغلٍ بهذَا الحصار ، وليسَ الوقتُ مناسبًا لطلبِ الإذنِ بالمقَابلة ، ونزلَ عبدُ اللطيف على صَدِيقه ابنِ شدَّاد قَاضى عَسْكر صلاح الدين ، أخبره بما جَاء من أجْله ، فطمأنه وتوجَّهَ مَعَه إلى خيمةِ وزيرِ السلطان .

---

(١) ١١٨٧ ميلادية .

(٢) يُقَالُ عَصَبَهم الأَمْرُ : اشتَدَّ عَلَيْهم .



سرتُ يا أبنائى مع صَديقى إلى خيمـةِ وزيـرِ مصـر ، العـالم الأديـب الذى يُسمى «القاضِى الفاضِل» ، وكانَ لهذا الوزيـرِ صـورةٌ قويـةٌ فـى نفسِى ، رَسَمتها لــه مما سَمِعته عـنْ حسـنِ تَدبيره ، وعظيـمِ درايتـهِ وتفكيره ، وسعةِ علمهِ ، وثقةِ السلطان به . واستأذنَ صَاحبى فـأُذِنَ له ، ودخلَ ودخلتُ خَلفه ، وعيناى تبحثـانِ عـنِ القـاضِى الفـاضِل ، وسلَّم صَاحبى وسلمتُ ، واتجهتْ أنظارنَا إلى جسـمٍ نحيـلٍ ، يحمـلُ رأسًـا كبيرًا ، ويدًا ماهرةً تكتبُ على ورقٍ أمَامه ؛ وفمًا يملي علـى اثنـينِ قـد جلسَـا بجواره ، وشـفتيْنِ تلعبـانِ ألـوانَ الحركـات ، حَريصتيْـنِ علـى إخراجِ الكلامِ وتصْوِيره ، واختطفَ منا الرجلُ نظرةً سريعةً ثم أشارَ إلينَا بالجلوسِ .

حرتُ يا أبنائى فيما أرى ، أهذَا هو القاضِى الفاضِل ؟! أتلـكَ القـوةُ الكبيرةُ ، التى ملأت الآفاقَ بعلمهَا وأدبهَا، وحسنِ تصريفهَـا للأمـور ، تسكنُ فى هذَا الجسمِ الضئيلِ ؟! ألا تكونُ هذِه خيمةُ الوزيرِ وهـؤلاءِ فى انتظاره ؟! لكنَّ صَاحبى قد جلسَ أمَامه فى وقار فمـنْ ذَا يكـونُ يا ترى ؟!

وأخذتُ أختلسُ النظرَ إلى هذا الرجلِ النحيلِ ، فـأجدُ قلبـى يمتلـئُ بالمهابةِ والإجـلالِ ، وأستمعُ إلى تلـكَ الأوامـرِ التـى يلقيـهَا فـى حـزمٍ وَجِدٍّ ، وأنظرُ إلى مَنْ حوله ، فأجدُ الخضوعَ والرهبةَ ، والرجل يَكـبر فى صدرى ، حتى مَلأه ، وزادَ على تلكَ الصورةِ التِـى رسمتها لـه مِـنْ قبل ، وتأكدت أنه هو الوزيرُ الذِى قَصَدناه .

ومرَّ زمنٌ ليسَ بالقصيرِ ، وهو منهمكٌ فـى أوامِره وكتابَاتـه ، ثـم التفتَ إلينَا وحيَّانا ، فأسرعَ صديقِـى قائمًـا فـى إجـلالٍ وأدبٍ يقـولُ : «سيدى الوزيرُ الجليلُ ! جئتُ إلى حَضرتكم اليومَ ، لأقدمَ عالمًـا جليـلاً من العلماءِ، هو الشيخُ موفق الدين عبد اللطيف البغدادى، رَاجيًا أن تشمَلُوه بعطْفكـم، وهـو يتمنـىَّ أن ينالَ رضَـا سـيدى الوزيـر» ، ثـم جلسَ ، فالتفتَ الوزيرُ إلىَّ فى وقَار ثم قالَ :

- مِنْ بغدادَ يا شيخ عبدِ اللَّطِيف ؟

- نعم يا سَيِّدِى الوزير ، مِنْ بغداد .

- أحصَّلتَ منَ العِلم الكثير ؟

- بعضًا مِنْ فضلِ سيدى الوزيرِ العَالِم الأجَلّ !

- اجلسْ يا شيخ عبد اللطيف .

وجلستُ يا أبنائى ، وأخذَ الوزيرُ يُلقى علَىَّ أسئلةً شديدةَ الصعوبةِ فى فنونٍ مُختلفةٍ ، وكنتُ بحمدِ الله مُتمكنًا ، فأجبتُه إجابــةً سـديدَةً ، حتى ظهرَ السرورُ على وجهـه ، وكـانَ لم يقطـعْ إمـلاَءه ولا كتابتَـهُ ، والتفتَ إلىَّ قائلاً : «حسنًا يا شيخ عبد اللطيف ، أجبــتَ بسـدادٍ ، وقـد رتبنا لكَ راتبًا عظيمًا فى مسجدِ دمشق» فأسرعتُ واقفًـا، أرجُـوه أن يأذنَ لِى فِى مصرَ لاَ فِى دمشق ، فقالَ فى وَقَارٍ :

- إنَّ مصـرَ الآن فـى شـغلٍ بـالفرنج وحُروبـهم ، والسـلطانُ فـــى اهتمامٍ بما تراهُ مِنْ شأنهم .

- ولكنْ لِى هَوى فى مصرَ يا سيدِى الوزير !

- سـندخلهَا معًـا إن شـاءَ الله آمنـينَ ، يـومَ يعـودُ السـلطانُ إليـــها مظفرًا ، فلتذْهب الآن إلى دمشق .

- لقد كنتُ بدمشق يا سيدى الوزير ، وإنى أبحثُ عن شىءٍ .

- أما وجدتَ هذَا الشىء بدمشق ؟!

- لا يا سيدى الوزير ، وأرجُو أن أجدَه بمصرَ !

- العلمُ يا شيخ عبد اللطيف ؟

- أبقاكَ الله يا سيدى الوزير ، ونصرَ مولاَنـا السـلطان ، هـو العلـمُ الذِى خرجتُ منْ أجْله !

فتناول الوزير ورقةً ، وخطَّ عليها بقلمِهِ ، ثم دفعهَا إلى حَاجبه ، وأمره أن يحملهَا البريدُ سرِيعًا إلى مصر ، ثم التفتَ إلىَّ قائلاً :

- أذِنَّا لكَ فى مصرَ يا شيخَ عبد اللطيف .

- أبقاكَ الله يا سيدى الوزير ، وأبقَى مولاَنا السلطان!

- وكتبنَا بشأنكَ إلى نائبنَا ابن سناء الملك ، وستجدُ هناكَ كلَّ ما يسركَ .

فأسرعتُ يا أبنائِى إلى يدِ الوزير ألثمها[1] شكرًا على هَذِه العنَاية ، وذلكَ الفضْل ، وصَاحبى يبتسمُ لهذَا التوفيقِ ، ثم استأذنا ، وانصرفنَا ، وأنا أقفزُ إلى خَيْمتى .

وأعلنَ المؤذنُ للصَّلاةِ ، فقامَ الشيخُ ، وقامَ الطلاَب ، بعد أن اتفقُوا على استئنافِ الحديثِ فى هذَا اليومِ عقبَ صَلاَةِ العشَاء .

---

(١) لثم اليَدَ : قَبَّلَهَا .

إلـى مصـر

قُضيت صلاةُ العشاء ، والتـفَّ الطـلابُ حـولَ الشـيخ ، ووجُوهـهـم تنطقُ بمـا فـى قُلوبـهم مـن الشـوقِ لحديـثِ مصـر ، وبعـد أن حمـدَ الله وصلى على رسوله قال :

أسـرعتُ يـا أبنـائى إلى الخيمَـة ، أكـادُ أطـيرُ مـنَ الفـرح ، وعلـمَ أصدقـائى فـى المعسـكرِ بمـا انتـهت إليـه المقابلـةُ ، فخفُّـوا لتـهنئتى وتوديعى ، ويسَّروا لى السفرَ فى القافلةِ الراحلةِ إلى مصر فـى صباحِ اليومِ التالى . وفى الصباحِ ، كنتُ فى طريقِ مصر ، والشَّـوق يدفعنـيِ إلى بلادِ النيل علمائها وشعرائها وأطبائـها ، وأخـذتُ أعـدُّ الأيـامَ التِـى انقضتْ ، والأيامَ التى بَقيـت ، وأسـألُ مَـنْ ألقـاه مـنَ الوافديـنَ مـن مصر ، وأكادُ أَدْفَعُ الركبَ لتزيدَ سُرعته ، حتـى دخلنَـا حـدودَ مصـر واتجهنَا إلى القاهرة .

ودخلتُ يا أبنائى تلكَ العاصمةَ الكبـيرةَ الممتلئـةَ بـالدُّور والقصـور والحركةِ ، واستعدَّ المسافرونَ للتفرقِ ، وأخـذَ كـلٌّ منـهم يرجُونـى أن أنزلَ ضيفًـا عليـه . ولم يطـل بنـا الموقـفُ حتـى تقـدمَ رسـولٌ يسـألُ الركبَ ، ويبحـثُ عـن الشـيخِ عبـدِ اللطيـف البغـدادى ، فـانطلقت الأصواتُ تُنَادى : يا شيخ عبد اللطيف ! يا شيخ عبد اللطيف ! رسـولُ نائبِ الوزير ، رسولُ نائب الوزير ، وتقدَّمَ الرسولُ فى أدبٍ كثيرٍ ، ثم صافحنى قائلاً : مرحبًا بالعالِم الجليلِ ، ضيـفُ وزيـرِ مصـر القـاضِى الفاضِل ، تفضلْ يا سيدى واركبْ هذَا الجوادَ .



وركبتُ جوادًا تتمثلُ فيه العظمةُ والنعمةُ ، وسَار بنا الرسولُ إلى دارٍ فخمةٍ جميلةِ التنسيقِ ، ووقفَ أمامهَا ثم قال : «هذه الدارُ نُزُلَكَ يا سيدى ، تفضَّل» ، ونزلَ ونزلتُ ، ثم سبقنِى إلى البابِ ، ودخلَ ودخلتُ خَلفه فى دهشةٍ لما أرى ، فقد وجدتُ الدارَ مُعَدَّةً إعدادًا كاملا ، كما أتمنى وفوقَ مَا أتمنى ، وودَّعنى الرسولُ وانصرفَ فى أدبٍ ، واستقرَّ بى المقامُ ، وحمدت الله الذِى هيأ لى هذَا الفضلَ الكبيرَ ، ثم أَحسَسْتُ بركبٍ قادمٍ ، ودخَل الخادمُ يستأذنُ لابن سناء الملك نائب الوزير ، فتهيأتُ لمقابلته ، ودخل فى جلالٍ وعظمةٍ ، وحَيَّانى فى

سرور ، وسألنى عن الوزيرِ والجيشِ والسلطانِ ، ثم جلسَ وحوله جمعٌ عظيمٌ من الكبراءِ ورجالِ الدولةِ ، وأخذنا نتجاذبُ أطرافَ الحديث ، وأنا أختلسُ النظرَ إليه لأتحسسَ منزلتى التى سأحلُّ فيها مِنْ قلبه ، فاشتدَّ فرحِى لأننى عرفتُ أنه قد سُرَّ بى كما سرَّ القاضِى الفاضِل ، ثم قامَ، وقامَ رجالُه خَلْفه ، وصافحَنِى هو ومنْ معه فى بشاشةٍ وبشْر ، ورافقته إلى البابِ فكررَ التسْليم ، وأخذتُ أشيِّع هذا الركبَ بناظرِى دهشًا مما أنا فيه ، وقضيتُ ليلتى فى أرقٍ شديدٍ ؛ لا لأنّ الفراشَ لا يُلآئمنى ، فقد جُهز البيتُ بأثاثٍ يناسبُ الوزراءَ والعظماءَ ، ولا لمطمعٍ أرجُوه بعد هذِه النعمةِ ، ولكنْ لشدةِ سُرورى بما وصَلْتُ إليه .

وأصبحَ الصباحُ فإذا برسولٍ يستأذنُ قائلاً : « هذِه هديةٌ لضيفِ وزير مصر القاضى الفاضلِ ، مِنْ قَاضى القضَاة ، وهو يرجُو قبولها » ، وما كاد يخرجُ حتى استأذنَ رسولٌ آخرُ قائِلاً : «هديةٌ لضيفِ وزير مصر القاضِي الفاضل من شيخِ العلماءِ ، وهو يرجُو أن تتكرمُوا بقبولها» ولم يكد هذا الرسولُ يغادر البيتَ حتى قدمَ آخر بهدية من قائدِ القاهرة .

وهكذا يا أبنائى ، ما كاد العظماءُ والكبراءُ يعلمونَ بورودِ ضيفِ القاضى الفاضِل ، حتى انهالت عليه الهدايا والدعواتُ إلى الولائِم الفخمةِ ، التى أتاحَت له فرصةَ الإطلاع على ما فيه هؤلاء العظماءُ من الترفِ والنعمة ، كَمَا هُيئ له أسبابُ الانتقالِ فى أنحاءِ مِصْر ، حتى لمسَ بنفسِه تلك الغرائبَ التى سَمع عنها ، وكان أولها النهر العجيب .

وأراد الشيخُ أن يتحدثَ عن النهرِ العجيب ، لكنه لاحظَ أن الوقتَ قد تأخرَ ، فنبه الطلابَ الغارقينَ فى حديثه العذْب ، إلى أن الدرسَ القادمَ سيكونُ فى صباحِ الغدِ إن شاءَ الله .

النهر العجيب

أصبحَ الصَّباح ، وأخذَ الطلبةُ بمجالسَهم ينتظرونَ النــهرَ العجيبَ ، وبدأ الأستاذُ حديثَهُ قائلاً :

مَا هَذَا ؟ !

سألت رائدى هذَا السؤالَ يا أبنائِى فى دهشَـةٍ بالغـةٍ ، حينما رأيتُ النيلَ يتدفقُ فى قوةٍ ، ويفيضُ عَلَـى الشَّـاطئين بمائِـهِ المتضَـارب فـى سباقٍ إلى الشمالِ ، وعهدِى بغيرِهِ منَ الأنهار قد جفَّ فى ذلــكَ الأوان ، ولم يكن جَواب رائدِى إلا أن قالَ فى دهشةٍ لدهْشتى :

- إنه النيلُ يا شيخ عبد اللطيف ! أما رأيتَ النيلَ قبلَ اليومِ ؟ !

- لمْ أره يا سيدى ، إنه لعظيمٌ ، ولكنى سمعـتُ عـن طُولـه الكبـير ، وأنه ينبعُ من جبالِ القمرِ وراءَ خطِّ الاستواء .

- نعم يا شيخ عبد اللطيف ، إنه النيلُ العظيـمُ ، ينبـعُ مـن جبـالِ القمرِ وراءَ خط الاستواء ، ويفيضُ فى هذَا الوقـتِ ، فتنفتـحُ الـترعُ ، ويغمرُ الماءُ وجهَ الأرضِ ، فتنبتُ الخيرَ ويعمُّ الرخَاء .

- وهلْ يفيضْ كلَّ عامٍ بهذِه القوةِ يا رائدِى ؟ !

- سؤالٌ يا شيخ عبـد اللطيـف ، يبعـثُ فـى القلـبِ البهجَـةَ أحيانًـا والحسرةَ أحيانًا ، وإنـى لأرجُـو أن تكـونَ إقـامتكَ فـى مصـرَ سَـعِيدةً بالفيضَـان ، لأنَّ النيـلَ إذا انخفـضَ ، حدثـت المجاعــةُ والعيــاذُ بــالله ، فلا تُبقِى وَلاَ تَذَر .

- ألا يسقطُ المطرُ فيعوضَ هذَا الانخفَاضَ ؟ !

- ستَرى كُلَّ شىء ، وستعلم أنَّ الأمطارَ لا تسقطُ بمصرَ إلاَّ قليلاً وخاصَّةً فِى الصَّعيد ، وقد يسقطُ المطرُ فى الشمال ، لكنه لا يفى بحاجَة الزراعةِ ، ماعَدا دمياطَ والإسكندريةَ ومَا جَاورهما ، فهى غزيرةُ المطرِ ، ومِنْ ذلك المطرُ يشربُ أهلهَا ، وليسَ بمصرَ نهرٌ آخرُ سِوَى النيلِ .

- لقد لاحظتُ كثرةَ الرطوبةِ ، مَعَ أننا فى فصْلِ الجفافِ واليبس ، ألا تحسُّ بذلكَ ؟ !

- نعم يا سيخ عبد اللطيف ، هذَا وقتُ اليبسِ والجفافِ ، لكنَّ النيلَ يُغيرُ جو مصر ، فهو يفيضُ فى الصيفِ ، ويغمرُ الأرضَ فى الخريفِ ، فإذا تبخر الماءُ الذِى يُغطى تلكَ الأرضِ الواسعةِ ، امتلأ الجوُّ بالرطوبةِ التى تحسُّهَا .

والتفَتُّ يا أبنائِى أقلبُ النظرَ فى النيلِ ، وأرى السفنَ الكثيرةَ التى تَجْرِى فيه ، بعضهَا يسيرُ مع التيار المتدفقِ منَ الجنوب ، تَدفعه تلكَ القوةُ الهائلةُ ، وبعضهَا قد امتلأتْ أشرعتها بالهواءِ الذِى يهبُّ مِنَ الشمال ، تشقُّ الموجَ صاعدةً إلى الجنوب . ولاحَت مِنى نَظْرة إلى مركبٍ منَ المراكبِ الواقفةِ فوقَ الماءِ ، قَدْ شُدَّ إلى الشَّاطئ بحبالٍ قَويَّة ، فصحتُ قائلاً :

جميلٌ جدًّا ! إنه لشىءٌ عجيبٌ ! ما هذَا يا رائدِى ؟ !

ونظر الرجلُ حيثُ أنظرُ ، ثم ابتسمَ قائلاً : هذَا هو المركبُ العشرِى يا شيخ عبد اللطيف ، سفينةُ الأمراءِ ، ومركبُ العظماءِ ،

هَيَّا ندخُلُـه . واسْـتأذنا فـأذنَ لنـا ، لأنَّ الأبـوابَ كلَّـها تُفتـحُ لضيـفِ القاضِى الفاضِل . تحفةٌ من التحفِ البديعةِ الفَاتنة ، قد سُطح بـألواحٍ سميكةٍ محكمةٍ منَ الخشبِ ، وَأُخرجَ من تلكَ الألواحِ أفاريز نحوَ ذراعين ، وبُنِىَ على السطحِ بيتٌ منْ خشبٍ تُغَطيه قبةٌ جميلةٌ ، وفُتح فـى هـذا البيتِ نوافذُ ذاتُ أبوابٍ تطلُّ عَلى النهرِ مِنْ جميـعِ جِهَاتـه ، ثـم صَنـع فيه حجرةٌ مفردةٌ لها دورةُ مياهٍ خَاصَّة ، ونُقِـشَ البيـتُ كلُّـه بـالذهبِ وأجمـل الأصْبـاغ ، ونُظـم بـهذا الشـكلِ ليكـونَ الأمـيرُ جالسًـا فـى مَجْلسـه ، وحَولـه المماليكُ بالمنـاطقِ والسـيوفِ عَلَـى تلـكَ الأفـاريزِ الخارجَة ، وهو فى عَظَمته يُطل عَلـى النيـلِ ، ويتمتـعُ بالمـاءِ الجـارى والنسيمِ العليلِ . ثـم نزلنـا إلى أسـفلِ المركـبِ حيـثُ توجـدُ الأطعمـةُ وما يحتاجُ إليه مِنَ الأشـياء ، وحيـثُ يكـونُ الملاحـونَ الذيـنَ يقذفـونَ بالسفينةِ ، لاَ يَعْلَمونَ مـن أمـرِ الركـابِ شـيئًا ، ولا يعلـمُ الركـابُ مِـنْ أَمْرِهم شيئًا .

ومنْ عجيبِ ما لاحظتُ يـا أبنـائى فـى سـفنِ مصـر ، أن الملاحـينَ يسيرونَ إلى الخلفِ ، ويشبهونَ فى تحريكِ السـفنِ مـنْ يجـذبُ ثقـلاً بـين يديـهِ ويمشِـى بـه إلى خَلفـه ، عَلـى عكـسِ مَلاَّحـى العـراق ، فـهم بمنزلةِ من يدفعُ الثقلَ أَمَامه ، ولهـذَا فـإنَّ سـفنَ العـراقِ تتجـهُ حيـثُ يتوجهُ الملاحُ ، أما سفنُ مصرَ فتتحركُ إلى اتجاهٍ مُضَاد للناحيـةِ التـى يتوجَّهُ إليها .

وعدنَا إلى الشَّاطئ والنيل يجذبنى بروْعَته وجَلاَله ، ومـددتُ بصـرِى ونبهتُ رائدِى إلى أنَّ الجبلَ قريبٌ منَ النيلِ ، فابتسمَ قائلاً :

سَترى مجرَى النيل يا شيخ عبد اللطيف إنْ شاءَ الله ، حينَمَا نصعدُ فيه إلى الجنوب ، وعندَ ما نسيرُ فيه إلى الشمالِ ، وستعرفُ أنَّ النيلَ يحتضِنُه جبلاَن أحدُهما شرقى والآخرُ غربى ، يبتدئانِ منْ أسوان فى أعلى الصَّعيد ، ثم يتقاربَانِ ويكَادَانِ يتماسان عندَ مَدينة إسْنَا ، ثم ينفرجَانِ قليلاً قليلاً ، وكلمَا امتدَّا طولاً انفرجَا عرضًا حتى يصلاَ إلى الفُسْطَاطِ ، ثم يتباعدَانِ ، فيتشعبُ النيلُ بينهمَا حتى يصلَ إلى البحرِ المالحِ . إنَّ مصرَ هبةُ النيلِ يا شيخ عبد اللطيف ، يفيضُ عليها منْ خيرهِ وبركَاته ، فيأتي كلَّ عامٍ بهذَا الطينِ الذِى ترَاه مُختلطًا بالماءِ ، والذِى هو سرُّ الخصبِ والنماءِ ، ونُسميه نحنُ «الإبليز» يحمِلُه من السودانِ ، ويسيرُ به حتى يصلَ أرضَ مصرَ فيغطيهَا به وقتَ الفيضَان ، ويستمرُّ الماءُ فوقهَا ، ثم يستقرُّ الطينُ ويجفُّ الماءُ ، فتحرثُ الأرضُ وتُزرع . وقد بدأَ هذَا الخيرُ من قديمِ الزمانِ ، منذُ جَرى النيلُ فِى الأرضِ ، ومازالَ يكررُ هذا العملَ كُلَّ عامٍ حتى غَطَّى أرضَ مصرَ ، وجعلهَا صالحةً للزرَاعَةِ ، ولهذَا كانت أعاليهَا أَجْود منْ شمالها ، لأنه يمنحهَا من هذَا «الإبليز» أكثرَ مما يمنحُ الشمالَ .

- إنَّ مصرَ هبةُ النيلِ حقًّا يا رائدِى !

- نعم يا شيخ عبد اللطيف ، وهو يتصرفُ فى أحوالِ أهلهَا ، ويؤثرُ فى صِحَّتهم ومزَاجِهم ، وَيَمْنَحُهُم ويحرمُهُم ، وقد اعترفَ له القدماءُ بذلكَ ، وَرَأوا أنه أساسُ حَيَاتهم ، وعَليه تقومُ حَضَارتُهم ورُقيهم ، فجعلُوا مبدأ سَنَتهم أولَ الخريفِ ، عندَ بلوغِ النيلِ غايته القُصْوى من الزيادةِ ، وزوَّجُوه يا شيخ عبد اللطيف .

- زَوّجُوه ؟ ! زوجُوا النيلَ ؟ !

- نعم يا شيخ عبد اللطيف ، زوجُوه ، أما سمعتَ عن عروسِ النيل ؟ !

- عروسٌ يتزوجها النيلُ ؟ ! منَ البشرِ ؟ !

- نعم منَ البشرِ ، تتحدثُ وتسيرُ ، وتأكلُ وتشربُ ، وتكونُ أجملَ مَنْ في مصرَ ، وتزفُّ إليه في مهرجَانٍ تهتزُّ له جوانبُ البِلاَد .

ألا يزالُ يتزوجُ يا رائدِى ؟ ! أيتزوجُ الآن ؟ !

وانطلقَ صوتُ المؤذنِ يعلنُ صَلاَةَ الظهرِ ، فالتفتَ الطلابُ بعضُهم إلى بعضٍ ، وسبقَهم الشيخُ إلى الصلاةِ بعدَ أنْ نَبَّهَهُمْ إلى أنَّ الجلسةَ القادمةَ ستكونُ في صَبَاحِ الغدِ .

عروس النيل

ما كاد الصباح يشرقُ ، حتى كانت الحلقةُ منتظمةً حولَ الشيخ ، فى شوقٍ شديدٍ للعروسِ ، وبعدَ أن حيَّا الأستاذُ طلاَّبه ، وحمدَ الله وصلَّى عَلى رَسُوله قال:

سألتُ رائدِى عنِ النيلِ وزَوَاجه ، وأنا فى دهشةٍ منْ هذَا الأمرِ الغريبِ ، فابتسمَ رائدِى لما ظَهرَ عَلى وجْهى وبرقَ فى عينِى ، ثم قالَ : إن الناسَ يتناقلونَ إلى اليوم حديثَ النيلِ وعروسَ النيل ، ويذكُرونه كلمَا فَاض[1] أو غَاضَ[2] ، ويقولونَ : إنَّ المسلمينَ لما فتحُوا مصرَ ، جاءَ أهلُهَا فى شهرِ بَئُونة إلى عمرو بن العاص فَاتح مصر وَوَاليها وقالُوا له :

- أيها الأميرُ ، إن لبلدنا سُنَّةً لا يجرِى النيلُ إلا بِهَا ، وتلكَ السنةُ أيها الأميرُ أن تُلقَى فيه فتاة .

- تلقونَ فتاةً حيةً فى النيلِ ؟ !

- نعم أيها الأميرُ ، وتكونُ جَمِيلةً فَاتِنةً ، أجملُ منْ فِى مِصْرَ !

- هذَا قتلُ نفسٍ بغيرِ حَقٍّ !

- ولكنها عروسُ النيلِ أيها الأميرُ ، إنه ينتظرهَا عَامًا كاملاً !

- أيعْقِلُ النيلُ ذلِكَ ؟ !

---

(١) فَاضَ النهْرُ : امْتلأَ .

(٢) غَاضَ المَاءُ : نَزَلَ فِى الأرض وَغَابَ فيها .

- نعم أيها الأميرُ ، إنه يعقلُ ، وينظرُ ، ويسمعُ ، ويترقبُ عروسَه كُلَّ عامٍ ، فى الثانِى عَشَرَ مِنْ هذا الشهر .

-وأبوهَا وأمهَا ؟ !

- نُرضِيهِمَا أيها الأميرُ بالمالِ ، ثم نُلبسهَا أجملَ الثيابِ وأفخرَ الحلى ، ونزفُّهَا إلى النيلِ فى مهرجَانٍ كبيرٍ !

- فيفيضُ حينذاكَ ؟ !

- نعم أيها الأميرُ ، يفيضُ ويملأُ البقاعَ ، ويحتفلُ بعروسِهِ ، ونحنُ نحتفلُ معه بالنعمةِ والخيرِ .

- وإذَا لم تُلْقَ الفتاةُ ؟ !

- لا يفيضُ أيها الأميرُ ، وتكونُ المجاعةُ ويحلُّ البلآءُ .

- لنْ يكونَ هذَا فى الإسلامِ أيها الناسُ ، لنْ نقتلَ النفسَ التِى حَرَّم الله إلاَّ بالحق ، لنْ نفجَعَ أمًّا وأبًا فى فتاتهمَا ، لن نقدمَ على هذِهِ الجريمةِ وليكنْ ما يكُون ، ولتعلمُوا أن الإسلامَ يهدمُ الإثمَ ويزيلُ الظلمَ ، وسأنتظِرُ حَتَّى أرى .

وانتظرَ عمرو يترقبُ زيادةَ النيل ، وشاعَ فى الناسِ أن الإسلامَ أبطلَ تلكَ العادةِ الذميمةِ ، ففرحَتْ كلُّ فتاة جَميلةٍ ، كانت تنتظرُ سَاعتها الأخيرة فى حزنٍ وكآبةٍ ، واطمأنت عيونٌ كانت ستذرفُ الدموعَ يومَ الزفافِ ، فى وسطِ المصفقينَ الفرحينَ ، واستقَرت أكبادٌ كانت ستتقطَّعُ ، والعروسُ تُلاقى حَتفها ، وحَزِنَ أولئكَ الذينَ كانوا ينتفعونَ مِنَ المهرجَان ، ويعدونَ الحفلَ ويؤجرونَ عليه . ومرتْ

أشهرٌ ثلاثةٌ ، فمضَى بئونةُ وأبيبُ وَمِسْرى ، والنيلُ لا يزيدُ قليلاً ولا كثيرًا ، وجاءَ الناسُ يهرعونَ إلى عمرو :

- أدركنَا أيها الوالى الرحيمُ !

- مَاذَا ؟ ! أجَدَّ جديدٌ ؟ !

- النيلُ أيها الأميرُ ! النيل !!

- أيطلبُ العروسَ ؟ !

- إذَا تمهلنَا أيها الأميرُ ، خرجَ الوقتُ وضاعتِ الفرصَة !

- وإذَا زَوَّجناه بعدَ تلكَ الشهور ، أيفيضُ ؟ !

- إذَا انقضَت تلكَ الأشهر ، صبَّ غَضَبَهُ علينا ، لا نباتَ ولا حيوان ! الجوعَ أيها الأميرُ ! الجوعَ ! أنقذنا بحقكَ ! ألقِ العروسَ !

- إنني سأنتظرُ ولا أقتلُ فَتَاةً أبدًا .

- ولكنَّ الناسَ أخذُوا يرحلونَ عَنْ مِصْرَ !!.

- سأرسلُ إلى أميرِ المؤمنينَ عُمرِ بنِ الخطَّاب أستطلعُ رأيه .

وأرسلَ عمرو بنُ العاصِ إلى الخليفةِ عمرِ بنِ الخطَّاب يُنبئه الخبرَ ، ويصفُ له مَا يحدُثُ فِى مصرَ مِنَ الخوفِ والفزَعِ ، ويخبره بقصَّةِ العروس ، وأنَّ النيلَ لم يَفِض إلى اليوم ، ويطْلعه على ما أجابَ به الناسَ ، ويرجُوه أنْ يشيرَ عليه بما يَصْنع .

وانتظرَ عمرو ، والقومُ يُلحونَ عليه فى إلقاءِ الفتاة ، حتى يَطْلُقَ النيلُ مَاءَه ، وأن يسرعَ حَتى لا تضييع الفرصةُ ، ويرجُونه أن يضحى بفتاةٍ فى سبيلِ مصرَ كُلِّهَا ، ويُوردونَ على سمعهِ مَا تناقلتهُ الأجيالُ وأبدعَه الخيالُ عن النيل ، وَيُصَوِّرون له النهرَ فى صورةِ الجبار العنيدِ ، الذِى لا تقفُ أمامه قوةٌ ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُعَاديه ، كلُّ هذَا والأميرُ فى انتظار جوابِ الخليفةِ ، دهشًا من أمرِ النيلِ وعروسِ النيل .

وجَاء ردُّ الخليفة ، فارتجَّت البلادُ ، واجتمعَ الناسُ بين يأسٍ ورجَاء ، وأمسكت كلُّ جميلةٍ فؤادهَا بيدهَا ، ونظرَ العقلاءُ إلى هذَا الدينِ ليروا مَوْقفه من ذلكَ الإثمِ والعدوانِ ، وأسرعَ الذينَ كانُوا ينتفعونَ من المهرجانِ خائفينَ ، يرجونَ أن يكونَ ردُّ الخليفةِ بإلقاءِ العروسِ ، حتى لا يحرمُوا ما كَانوا ينالونَ من خيراتٍ ، وبينَ هؤلاءِ وأولئكَ وقفتْ أمهاتٌ وآباءٌ ؛ ينتظرونَ الأمرَ فى حياةِ فلذاتِ أكبادهم . وفضَّ ابنُ العاصِ الخطابَ وابتسمَ ابتسامةً راضيَةً ، ثم قرأَ علَى الناسِ : «لقد أصبتَ يا عمرو ، إن الإسلامَ يهدمُ ما قبله منَ الإثمِ ، ولقد بعثتُ إليكَ هذه البطاقةَ فألقهَا فِى النيل» .

وفتحَ عمرو البطاقةَ ، وقرأهَا بصوتٍ مُرتفع ، ضجّ[1] له بعضُ الناس ، وابتسمَ له آخرونَ سَاخرينَ ، وهدأت له نفوسٌ ، ونظرتْ إلى الإسلام نظرةَ ارتياحٍ ، وسَمعوا عمرًا يقول : «من عبدِ الله عُمر أمير

---

(١) ضجَّ : ضجًا. وضَجيجا : صَاح منْ مشقَّةٍ أو جزَعٍ .

المؤمنينَ إلى نيلِ مصرَ ، أمَّا بعد ، فإن كنتَ تجرى مــن قِبَلِـك فـلا تجـرِ ، وإن كانَ الله الواحدُ القهارُ هو الذِى يجريك ، فنسألُ الله الواحــدَ القـهارَ أن يجريَـك» ، وطَـوى عمـرو البطاقـةَ ثـم ألقاهَـا فِـى النيـل ، وعيـون الجميع مُتعلقة بـهَا ، وسُخرية الساخطينَ ترتسمُ علـى شِفَاههم ، وفى قسماتِ وُجُوههم ، حتى ذهبت الورقـةُ بعيـدًا عـنِ العيـونِ ، ثـم انصرفُوا ينتظرونَ ما يحلُّ بمصرَ ، وما ستأتِى به الأيامُ .



عَـاد الجميـعُ إلى بُيُوتـهم ولا حديـثَ لهـم إلاَّ تلـكَ الورقـةَ ، بعضُـهم يسخرُ مما صنعه الأميرُ ، ويؤكـدُ أن غضبـةَ النيـل سـتكونُ شـديدةً ، وبعضُهم قد تنبه إلى ما كَانوا فيه مِنْ غَفْلَةٍ ، وأخـذُوا يتـهمونَ النيـلَ بالقسوةِ ، ويتساءلونَ عن عروسِ العامِ الماضِى أينَ ذهبـت ، ويحسـبونَ عددَ ما أُلقى فى النيلِ مــن فتيـاتٍ جميـلاتٍ ، ويسـألونَ عــنْ مَقَرهـن

كلهن ، وآباء الفتيات وأمهاتهن يحمــدونَ الله ، ويـهنئ بعضُـهم بعضًـا ، ويشكرونَ للدينِ الجديدِ فَضْله ، وتخليصَ بناتهم من المصير المحزن.

وكانت دهشةُ القوم بالغةً يا شيخ عبد اللطيف ، فإن النيلَ لم يلبـث أن تدفَّقَ فى قوةٍ ، حتى بلغَ النهاية ، وفاضَ على البلاد ، وأقام الناسُ مـهرجاناتِ الفـرح بالفيضـانِ وبإنقـاذِ الفتيـاتِ الجميــلاتِ ، وأراحَ الله النفوسَ وطمأنَ القلوبَ ، وهكذَا يتناقلُ الناسُ قصةَ العروسِ يا شيخ عبد اللطيف .

وأخذنى العجبُ يا أبنائى لتلكَ القصة ، ولاحظَ رائـدى مـا اسـتولى علـىَّ مـنَ الدهشـةِ فقـال : «هـذه بعـضُ عجـائب مصــر يــا شــيخ عبد اللطيف ، وسترى مَا هُوَ أشد غَرَابة ، سترى مُعْجزة الدهر» .

وفى اليــومِ الثـانى يـا أبنـائى ، كنـا أمـامَ معجـزةِ الدهـر ، وسـوفَ أُحَدثكم عنها غدًا فى الصباحِ إن شاء الله ، فقد وجبَ الظهر .

معجزة الدهر

انتظمَت الحلقةُ فى الصباحِ الباكرِ ، والسرور يملأُ أفئدةَ الطلابِ وبدأ الشيخُ حَديثَه قائلاً :

وقفتُ يا أبنائِى أمامَ تلك المعجزةِ حائرًا ، لا أدرى أصنعهَا الإنسان أَمْ صنعهَا الجنُّ ، وأطلتُ التفكيرَ فى تلكَ القوةِ التىِ استطاعَت أن تقيمَ هذه المعجزة الخالدة ، التى تُسمى «الأهرام» .

ثلاثةُ جبالٍ ضخمةٍ ، مُقامة على خطٍّ مُستقيم بالجيزةِ أمامَ الفسطاط على الجانبِ الغربى منَ النيل ، بينها مسافاتٌ يسيرةٌ ، واثنانِ منها عظيمانِ جدًّا ، متقاربانِ مبنيان بالحجَارة البيضَاء ، أما الثالثُ فينقصُ عنهما بنحوِ الربع ، ولكنه مَبْنى بحجارةِ الصوان الأحمر المنقَّط ، الذِى لا يؤثر فيه الحديدُ إلاَّ فى زمنٍ طويلٍ ، وإذَا نظرَ الإنسانُ إليه معَ أخويه وجَده صغيرًا بالنسبةِ إليهما ، فإذا اقتربَ منه وأفردَه بالرؤيةِ وجده كبيرًا هائلاً .

تلكَ الأهرامُ يا أبنائى ، من أعظم عجَائبِ الدنيا ، وقد سلكَ الأقدمونَ فى بنائهَا طُرقًا غريبةً ، جعلتها تصارعُ الزمانَ وتغلبُ الأيامَ ، فقد طلعت عليها الشمسُ ثم غَربت آلافَ السنواتِ ، وهى فى مكانها ترى الأجيالَ تأتِى ثم تَزُول ، ولا تتحطمُ هى ولا تزولُ ، وقد جعلوهَا على شكلٍ مخروطى يثبتها ويقويهَا ، وجعلُوا زواياهَا تقابلُ مهابَّ الرياح ، لتتكسر الرياحُ على زواياها ولا تؤثرُ فيهَا ، وصنعوهَا

من حجَارةٍ قوية ، طولُ كــل منــها مـا بـينَ عشــرةِ أذرعٍ إلى عشــرينَ ذراعًا ، فى سمكِ ذراعين ، فى عرضٍ مثل ذلك . والعجبُ يا أبنائى مَــنْ وضعَ الحـجرَ عَلى الحجرِ . بنظامٍ ليسَ فى الإمكانِ أصحُّ منــه ، بحيـثُ لا تجدُ بينَ الحجرينِ مَدخل إبرة ، ولا خلل شعرةٍ ، وبينهمَا طينٌ رقيقٌ جـدًا كأنـه الـورق ، لا أدرى مـا هـو ولا كـيفَ صُنع ، وقـد أدهشــنِى مَا رأيته من النقوشِ المكتوبةِ عَلى تلكَ الحجارةِ بالقلمِ القديم ، الـذِى كانَ أولئك القدماءُ يستعمِلُونه ، ولو نُقِلـت تلـكَ النقـوشُ إلى صحـفٍ لبلغت أكثرَ من عشــرةِ آلافِ صحيفـة ، وقـد بحثـتُ عـن أحـدٍ يعـرفُ تلـكَ الرمـوز ، فلـم أجـدْ مَـنْ يسـتطيعُ قراءتــها ، أو يعــرفُ شــيئًا من سرهَا .

وأخذتُ أنظرُ إلى قمةِ الهرمِ الأكبر ، فلا يستطيعُ بصــرِى أن يصــلَ إليها ، ووجدت الناسَ يدخلونَ ذلكَ الهرم من بابٍ مرتفعٍ غير مُنظـم ، لا يتفقُ مع عظمةِ البناء ، فأخبرنى رائــدِى أنـه ليـس البـابُ الأصلـى المتخذُ للهرمِ عندَ البناء ، ولكنه بـابٌ منقـوبٌ صُـودف اتفاقًـا ، وأخـذ يشجعنى على الدخولِ كما يدخلُ الناسُ فتشجعتُ ودخَلــت . وسـرتُ فى زَلَّاقَةٍ تُؤَدِّى إلى قمةِ الهرمِ حتــى قطعـت ثُلُثـى المسَافة ، فاشـتدَّت رَهبتى وسَقَطت مغشيًا علىّ ، فحمَلَنى مَنْ كَانوا معى ، وأعادونِى إلى الخَارج ، ولا تزالُ فىّ بقية منَ الحياة ، وأخذُوا يعالجوننى حَتى أفقتُ . وكنت أودُّ أنْ أكشفَ وأكُون داخلَ الهرمِ لأعرفَ ما فيه ، وأخــذَ رائـدى يُشـجعنى علـى الدخـولِ مـرةً أُخـرى ، لكنــى لم أتشـجَّع ، واكتفيــتْ بما حَدثنى به ، مِنْ أنَّ هذِه الزلاقة تُؤدى إلى أعْلى الهرمِ ، حيــثُ يوجـدَ

بيتٌ مرتفعٌ فيه قبرٌ منَ الحجر ، لعله كان قبرًا لمنْ بناه ، وليسَ فيه غيرُ ذلك إلا الخفافيش التى يبلغُ الواحدُ منها حجمَ الحمامةِ .

ومازلتُ أنظرُ إلى تلكَ القمةِ العَالية ، وأودُّ أن أقيسهَا وأعرفَ أبعادهَا ، وعلمتُ أن سكانَ القرية المجاورةِ للهرمِ قد اعتادُوا صُعُوده ، فاستدعيتُ واحدًا منهم وأعطيتُه بعضَ المال ، فأخذ يصعدُ كما يرقى أحدنَا فى السلم وأسرع ، ومن العجيبِ أنه صعدَ بنعْليه وثيابه ، وأنا أنظرُ إليه حتى بلغَ القمةَ ، فظهرَ كأنه عصفورٌ صغيرٌ، ثم نزلَ يجرِى كأنه يسيرُ عَلى طريقٍ واسعٍ مستقيمٍ ، وكنتُ قد اتفقتُ معه أن يقيسَ القمةَ بعمَامته ، فلما نزل قسنَا منْ عمامته ما قَاسه ، فوجدْناهُ إحدَى عشرةَ ذراعًا بذراعِ اليد ، فعزمتُ على أن أشجعَ نَفْسى ، وأغامرَ مرةً أخرى ، وأصعد كما صعدَ الرجلُ ، لأحققَ هذِه المقاييس ، لكنَّ المقاديرَ لم تهيئ لى الوصُول إلى تلكَ الأمنيةِ العظيمةِ ، ومن الغريبِ يا أبنائى ، أنَّ هذِه القوةَ الهائلةَ قد وجدَت مَنْ خدَعته نفسُه بهدْمِها وتسويتها بالأَرضِ .

هـدم الأهرام

فعندمَا تولَّـى ملـكَ مصـر العزيـزُ عثمـانُ بـنُ صـلاحِ الديـنِ بعـدَ موتـه ، حَسَّـنَ لـه الجهلـةُ مـنْ أصحَابـه ، أن يـهدمَ هـذِه الأهــرام ، ويُسَـويها بـالأرض ، وبـدأ بـالهرمِ الصـغيـرِ ، فـأخرجَ إليــه الحجــارينَ والنقَّابينَ ، والعمالَ الأقوياء ، وبذلَ لهم الأجورَ الكبيرةَ ، وأخرجَ معهم العظماءَ والأمراءَ ، كأنه خَارج إلى معركـةٍ عظيمـةٍ ، وأمـرَ بالانتـهاءِ منه فى أقربِ وقتٍ ، حتـى يَفْرغـوا إلى غـيره ، فيزيلُوهـا جميعًـا مـن فـوقِ الأرضِ ، ويبقَـى عَلـى الزمـانِ أنَّ العزيـزَ قـد صنـعَ مَـا عجــزَ عنه الزمَان.

وضربت الحملةُ خيامهَا بجانبِ الهرم الصغـيرِ ، ووجَّـهوا جُـهدهم إلى العملِ وتعاونُوا عليـه ، وأخـذَ التشـجيعُ يَـرنُّ فـى آذانِـهمْ ، وتتلاقَـى نغمَاته مع رنَّـاتِ المعاولِ الضَّاربةِ فى تلكَ الحجـارةِ العَاتيـة ، وجعلُـوا يوجهونَ القوةَ كُلَّهَا إلى حجرٍ واحدٍ ليزيحُوه عنْ مَقره ، ثم إلى غــيره ، ولكنـهم لم يسـتطيعُوا أن يـهدمُوا فـى اليـومِ الواحــدِ غـير الحجــرِ أو الحجريْنِ ، يقومُ أناسٌ من فوقِ الحجرِ يَدفعونه ، وآخرونَ من تحتهِ يجذبُونه بالحبالِ القويةِ ، ولا يزالونَ حتى يسقطَ بعدَ الجــهْدِ ، فيسـمع لوقعـه صـوتٌ قـوى مـن مسَافاتٍ بعيـدةٍ ، تـهتزُّ لـه الجبالُ وتزلـزلُ الأرض ، ثم يغوصُ فى الرمـلِ فيتعـاونونَ علـى إخراجـه ، ويبذلـونَ فيـه الجهدَ الكبيرَ حتى يخلصُوه منَ الرمل ، ثم يبـدأ جـهدٌ آخـرُ لتَفْتيتـه ، ويلاقـونَ البـلاَء حَتـى يقطعـوه قطعًـا ، ثـم تسـحبُ هــذه القطــعُ الضخمةُ على عجلٍ ، وتلقى فى ذيلِ الجبلِ عَلى مسافةٍ قَريبة .



واسْتمرت تلكَ المحاولةُ القاسيةُ يا أبنائى ثمانية أشــهر، لم ينــالُوا فيــها من الهرمِ شيئًا ، وطالَ مُكثهم ، ونفِدت نَفَقتُهم ، وضعُفت عَزَائمهم ، وانهارتْ قواهُم ، وأحسُّوا بالفشـلِ ، وتـأكدَ الملـكُ مـن إضاعـَة الجـهدِ والمالِ بدونِ فائدةٍ ، فأمرَ بالكفِّ عـنِ العمـل . ومـن العجيـبِ أن مَـنْ يَرَى حجارةَ الهدمِ يظنُّ أن الهرمَ قد أُخذ منه شــىء ، فـإذا نظـرَ إليـه وحده ، وجَده كما هو لَمْ يـهدمْ منـه شـىء ، إلا كشـطًا[1] خفيفـًا فـى أحدِ جَوَانبه ، وقد رأيتُ هَذه المشقَّة ، وسألتُ رئيسَ الحجارينَ قائلاً : لـو بـذلَ لكـم ألـف دينـار عَلـى أن تـردُّوا حجَـرًا واحــدًا إلى مكَانـه ونظَامه ، أيمكنكُم ذلك ؟ فأقسمَ بالله العظيم ، فِى حماسةٍ وقوةٍ ، إنـهم ليعجزونَ عنْ ذلك ، ولو بذلَ لهم أضعَاف أضعَافه .

---

(١) كشطهُ عنه كَشْطًا : أزالهُ عَنْه .

كانت هذه الحملـةُ لهدم الهرمِ الصَّغير ، وقـد هُدمت قبلـه أهـرامٌ أخرى ، ولكنها لم تكُن فى ذلكَ العِظَم وتلكَ القوة ، ففى مصرَ أهرامٌ كَثيرة ، بعضُهَا طينٌ ، وبعضُها لبنٌ ، وأكثرهـا مصنـوعٌ مـنَ الحجـر ، وبعضهَا مُدرج ، وبعضها غيرُ مُدَرج ، وقد كانَ بالجيزة عددٌ كبيرٌ مـنْ هذه الأهرامِ الصَّغيرة ، فهدِّمَت فى عهدِ السلطان صلاحِ الديـن علـى يدِ قراقُوش .

- قراقُوش ؟ !

- نعم يا أبنائى ، ذلكَ الرجل العظيمُ ، الذى خلَّد أعمـالاً جليلـةً فى مصر ، وإن كانَ أعداؤه قد رَسموه فى صورةِ الجبَّار الظَّـالم ، لأنـهم لا يحبونَ النظـامَ ، ولا يسـتطيعونَ أن يعيشُـوا إلا فـى أجـواءِ الفسـادِ والفوضَـى ، التـى قضَـى عليـها ذلـكَ المصلـحُ الكبـيرُ ، ويكفِـى أنَّ السـلطانَ صـلاحَ الديـن كـانَ يثـقُ بـه ويُقربـه ، ويسـندُ إليـه أمـورًا خطيرة ، وهو الذى بنى القلعةَ المصريةَ المشهُورة ، التى تُعرف بقلعة صَلاح الديـن ، وحفَـر فيـها بئرين عَميقيْـنِ ، يـنزلُ الإنسـانُ إلى كـلٍّ منهما ثلاثمائة درجة ، وأخرجَ منهما الماءَ العذبَ ، فأصْبَحا مع القلعـة منْ عجائبِ الدنيا . وقـد رأى بهمَّتـه العظيمـةِ أن يصـلَ الفسـطاطَ بالأهرام عَلى قناطر فوقَ النيل ، وأنه يستطيعُ الانتفاعَ بأحجـار تلـكَ الأهرام الصَّغيرة ، واختبرهَا فوجدهَا ممكنة الهدم ، وبنَى بها ما يقـربُ من أربعينَ قَنْطـرةً كـانت مـنَ العجـائبِ النـادرةِ ، واسـتمرت رَوعتـها وقوتهَا ، حتى تولَّى أمرهَا مـنْ لا بَصِـيرةَ لـه ، فسـدهَا ليحْبِـسَ المـاءَ فيروى به الجيزةَ غيرُ عالمٍ بقوةِ احتمَالهـا ونظامـهَا فقـوى عليـها تيـارُ الماء ، وزلزلَ منها ثلاثَ قناطر ، كانت سببًا فى فسادهَا جميعًا .

هذه قِصَّةُ المعجـزةِ الخالدةِ التى حَيرت العقـولَ ، ولا يقـلُّ عنـها غرابةً ، تلـكَ التماثيل التـى تكـادُ تنطـقُ ، ولا البيـتُ العجيـبُ الـذِى يُسـمونه البيـت الأخضـر ، ولا الـرأسَ الـذى يـبرزُ مـن الأرضِ وهو يبتسم !

وأذَّنِ المـؤذنُ ، والطـلابُ غـارقونَ فـى حديـثِ الشـيخ ، يـودُّون أنْ يستمرَّ ، فَيريهم تلكَ العجائبِ ، لكنه نَبَّهُم إلى الصَّلاة ، وأذِنَ لهـم فـى درسٍ آخرَ هذا اليومَ بعدَ العشاءِ .

الحجارة الناطقة

انتظمتِ الحلقةُ بعدَ صلاةِ العشاء ، وأخذَ الشيخُ يكشفُ عن تلكَ العجائبِ قائلاً :

ذهبتُ يا أبنائِى معَ الرائدِ إلى مدينةِ مَنْف ، التى كانت عاصمة الفراعنةِ القدمَاء ، والتى مرَّ عليها أكثرُ منْ أربعةِ آلافِ عامٍ ، وتَعَاقبت عليهَا أيدِى الأممُ بالتخريبِ والإفسَاد ، ومعَ ذلكَ بقى فيها كثيرٌ منَ الآثار التى تُحير العقولَ وتعجزُ الألسنةَ ، ورأيتُ فيها «البيتَ الأخضرَ» ، وهو بيتٌ منحوتٌ مِنْ حَجَرٍ واحدٍ ، ارتفاعه تسعُ أذرعٍ ، وطولُه ثمانٍ ، وعرضه سبعٌ ، وقد حُفر فى وسطِ هذا الحجرِ بيتٌ عظيم ، سمكُ حيطانه وسَقْفه ذراعَان ، وبقى منَ الحجرِ فضَاء واسع ، وهو منحوتٌ بصورةٍ عجيبةٍ ، يظهرُ فيه جمالُ الفن ، والقدرةُ على النقشِ والتصْوِير ، فليسَ فيه مكانٌ إلاَّ وقد زُين بأشكالٍ مُتقنة مِنْ ظَاهِره وبَاطِنه ، وخط عليه كتابة بذلكَ القلمِ القديمِ ، الذِى لا يستطيعُ أحدٌ أَنْ يقرأَه ، وعَلى الحوائطِ من الخارج صورة الشمسِ من جهة مَطْلعهَا ، وحولها كثيرٌ منَ الكواكبِ ، وصورُ الإنسانِ والحيوانِ فى أشكالٍ مختلفةٍ ، فمنها القائمُ ومنها الجالسُ ، ومنها السائرُ كأنه يتحركُ ، ومنها مَا هو مَادٌّ رجْليه ، أو مشمرٌ للخدْمَة ، أو حاملُ آلاتٍ يسيرُ بها . لا يتردَدُ رَائيه أنه سائرٌ لأمرٍ منَ الأمور ، وقَدْ بنى ذلكَ البيت مُعتدلاً ، ولكن الجهلةَ ظَنُّوا أنَّ تحته كنوزُ القدماء ، وحَفروا ليخرجوهَا ، فتغير وضْعه وثقلَ بعضُه على بعضٍ ، وتصدَّع صُدُوعًا خَفِيفةً .

ورأيتُ يا أبنائى تماثيلَ هائلةً حاكى بها القدماءُ صنعةَ الطبيعة ، فجاءت مثلها قوة ونظامًا ودقةً وإحكامًا ، لا ينقصها إلا الرُّوح ، ثم تكونُ مثل ما يتحركُ حولنا من الناسِ والحيوان ، وهى كثيرةُ العددِ ، يكادُ أمرها يفوقُ الوصفَ ويجاوزُ التقديرَ .

وقفتُ يا أبنائِى أمامَ تمثالٍ منها ، وقستُ أبعاده ، فوجدت ارتفاعه أكثرَ منْ ثلاثينَ ذراعًا سِوَى قاعِدَته ، ومن اليمينِ إلى اليسار نحو عشر أذرعٍ ، ومن الخلفِ إلى الأمام على تلكَ النسبة ، ومن الغريبِ أنه حجرٌ واحدٌ من الصوانِ الأحمر ، عَليه دهانٌ لامعٌ ، كأن صانعه قد أتمه بالأمسِ ، ولم يزده تقادمُ العهدِ إلا بهاءً ، والأعجَبُ منه إتقانه ، وكيف حفظَ فيه التناسبُ الطَّبيعِى والنظامُ الحقيقىُّ ، مَعَ ذلكَ العظمِ الجَبَّار ، فهوَ إنسانٌ كاملٌ لا تشذُّ فيه صغيرةٌ ولا كَبيرة ، وكلُّ عضوٍ فيه متناسبٌ معَ غيره من الأعضَاء ، مع حفظِ التناسبِ بينَ جميعِ الأعضَاء وبَاقِى الجسْم ، وقد حَاولتُ أن أجدَ فى هذا التمثالِ خَللاً أو نقصًا ، وأتعبتُ نفسِى فى الفحْصِ ، فما وجدتُ إلا الجلالَ والروعة ، وقد تتبعتُ أجْزَاءَهُ جُزءًا جزءًا ، ولاحظتُ صَدْره فوجَدته ينفصلُ عن العنقِ عندَ الترقوة بتناسبٍ ودِقَّة ، حتى ينتهى إلى أعْلى نقطةٍ فيه ، فيصورها فى إحكامٍ بارعٍ ناطقٍ ، ثم يسيرُ النظامُ فى التمثالِ ، فلا يتركُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أبرزها بوضوحٍ وقُوة ، لا تفترقُ عنِ الطبيعةِ الحية ، إذ ينحدرُ الصدرُ إلى البطنِ فى تناسبٍ ونظَام ، فتظهرُ عضلاتُ البطن يمينًا ويسارًا ، ويتضحُ توترها

وارتفاعها ، واشتدّت دَهشتى حينما رأيتُ انفصالَ الكتفِ واتصالها بالعضُدِ والسّاعِد ، وانفصَال حبل الذراعِ والكوعِ والكرسُوع[1] ، وإبرة المرفق ، وعضل السّاعد ، ورطُوبة اللحْم ، وغير ذلكَ مما وقفتُ أمامه خاضعًا لقوة الفنِّ وشدةِ إتقَانه .

وقد رأيتُ بعضَ هذِه التماثيل ، قد صُوِّر قابضًا بِكَفه على عمودٍ قطره شبر كأنه كِتَاب ، ولم ينسَ صَانعه أن يبرزَ فيه تكسر الجلدِ الذى يظهرُ فِى الكف ، مما يَلى الخنصر عند ما يقبضُ الإنسانُ على شىء ، أما حسن أوجهها ، فعلّى أكمل ما فى القوة البشريةِ أن تفعَله ، وأتم ما فى المواد الحجريةِ أنْ تقبلّه ، ولم يبقَ إلا صُورة اللحمِ والدمِ .

وقد رأيتُ أسديْن مُتقابلينِ بينهمَا مسافةٌ قريبةٌ فى صورةٍ هَائلةٍ ، قد حفظَ فيهما النظامُ الطبيعى والتناسبُ الحيوانى ، مع أنهمَا أعظم جُثة من الحيوانِ الحقيقى ، وتألمتُ أشدَّ الألمِ حينما وجدتهمَا قد تكَسرا ورُدِمَا بالترابِ ، وجعلتُ أقلبُ النظرَ فى هذِه التماثيلِ ، وأعذرُ العوامَّ فيما كانُوا يعتقدونَ أن الأوائلَ كانت أعمارهُم طَويلة وجثثهم كبيرة ، وفيما يتخيلونَ من أنهم كانت لهم عصًا سِحْريةً ، يضربونَ بها الحجرَ ، فيسعَى بينَ أيديهم ، لأن عقولَ العوام لا تستطيعُ إدراكَ ما يحتاجُ إليه ذلكَ الفن من علمٍ ومهارةٍ . وقد رأيتُ وَاحِدًا مِنْ هذه التماثيلِ قد نُحِتَ من مقدمِ رَأْسه رَحى قطرها

(١) الكُرْسُوعُ : طرف الزَّند الذِى يَلى الخنْصر . وهو الناتئ عند الرُّسْغ . والجمع : كراسيع.

ذراعان ، ولم يظهرْ فى صُورته تشويةٌ كَبيرٌ ، ورأيتُ آخرَ بين رجليهِ تمثالٌ ، إذا نظرَ الإنسانُ إليهما معًا ، ظهرَ الثانى كأنه مولودٌ صغيرٌ بالنسبةِ إلى الأولِ ، فإذا أفردَ الصغير بالنظرِ ، ظهرَ كأعظمِ رجلٍ من الرجَال .

وحينما كنتُ عندَ الأهرامِ رأيتُ الرأسَ الذِى يبتسمُ ، وعجبتُ لدقةِ صُنعه وحسن تصويره ، ويظهرُ قريبًا من الهرمِ الأكبرِ ، ويُسميه الناسُ «أبا الهول» ، وقد أخبرنِى رائدِى أن جسمَه تحتَ الأرضِ مُغَطى بالرمالِ ، و إذا كَان كما قالَ ، فلابد أن يكونَ طوله أكثر من سبعين ذراعًا بالنسبةِ إلى هذَا الجزءِ الظاهر ، وذلك الوجْه ممتلئ بابتسامةٍ لطيفةٍ ، وعليه دهانٌ أحمرُ لامعٌ جميلٌ ، وقد أدهشنى تناسبُ وجهه كالأذنينِ والعينينِ والأنفِ ، فقد ظهرت كما تصنعُ الطبيعةُ التى تحسنُ ذلك النظام ، ومازلتُ فى عجبٍ مِنْ مُصوره كيف استطاعَ أن يحفظَ تناسبَ هذِه الأعضَاء مع عظمها ، ومع أن الطبيعةَ ليس فى أعمالها ما هو بهذِه الصورةِ حتى يُحَاكيه وينقلَ عنه . وسَأحدثكم فى الصباحِ إن شاء الله ، عن بعضِ الغرائبِ التى أنتجهَا فنُّ أولئكَ القدماء ، فقد قارِبَ الليلُ أَنْ ينتصِفَ !

غرائب الفن

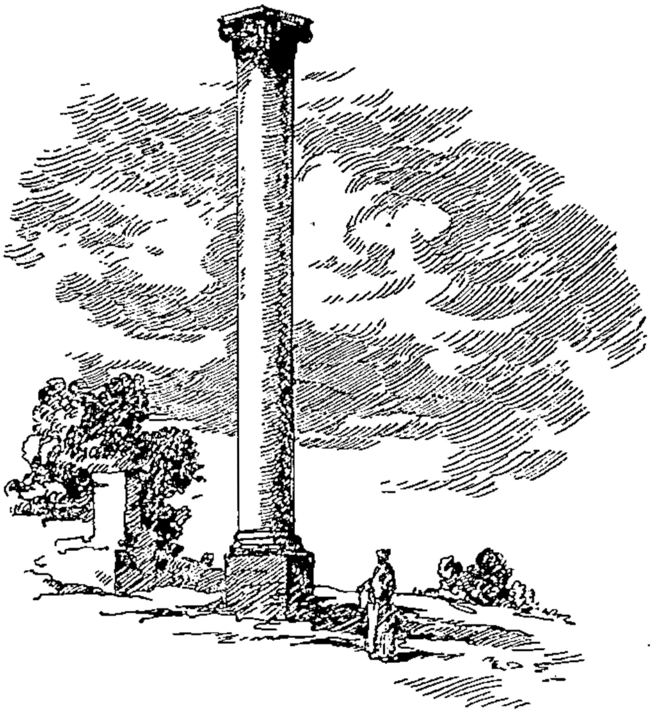
جلسَ الطلابُ إلى شيخِهم فى الصَّبَاح ، وهم فى شوقٍ بالغٍ لحديثِ الفنِّ وروعته ، فأخذَ الأستاذُ يطفئُ هذا الشوقَ قائلاً :

من أغرب ما شاهدت فى مصرَ يا أبنائىَ ، عمودَان كبيرانِ يسميانِ «مسلتى فرعون» وهما فى مدينةٍ قديمةٍ قريبةٍ منَ الفسطَاط . لا يزال سورهَا محيطًا بها وإن كانَ مهدُومًا ، ويظهرُ مِنْ أمرهَا أنها كانت بيتُ عبادةٍ لأولئكَ القدماء ، وبها عددٌ منَ التماثيلِ والآثار الغريبةِ ، وبابها بَاقٍ إلى اليومِ وتُسمى «عين شمس» .

وقد صُنعت المسلةُ يا أبنائى بمهارةٍ تستلفتُ الأنظار ، فإذا تدرجَ البصرُ من أسفلهَا إلى أعلاهَا ، رأى قاعدةً عظيمةً مربعة طُولها عشر أذرعٍ ، ومثله سمكهَا ، وقد وضعتْ على أساسٍ ثابتٍ فى الأرضِ ، ثم أقيمَ عليهَا عَمودٌ مخروطٌ ممتلئ بالكتابةِ القديمةِ ، يقربُ طُوله منْ مائةِ ذراعٍ ، وفوقَ رأسِهِ قَلَنْسُوَة منَ النحاسِ ، تمتدُّ هابطة من رأسِ العمودِ مقدَار ثلاثِ أذرعٍ ، كأنها عِمَامة خَضراء ضَخمة مَلْفوفة بمهَارة ، وقد سَالتْ خُضرتها وتغيَّرَ نحَاسها بطولِ المدةِ والأمطَار ، وظللتُ أنظرُ إليهَا ، وأتخيلُ لونهَا النحَاسى الجميلِ يومَ وضعهَا صانعوهَا ، وأشعةُ الشمسِ تتوهجُ فوقهَا ، كأنها حريقٌ توقَّدَ فى رأسِ ذلكَ العمُود .

ثم حزِنتُ يا أبنائى ، حينما رأيتُ المسلةَ الأُخرى قد سقطَت ، وانشقَّتْ منْ نصفهَا ، وسُرِقَ النحاسُ من رأسهَا ، ورقدَت بجانبِ

أختها ، التِى لا تزالُ قائمةً أمامَ الزمــانِ وتقلُّــب الأيـامِ ، ورأى الرائـدُ دَهْشتِى فأخبرنِى أنَّ الإسكندريةَ بــها عمـودٌ آخـر لا يقـلُّ روعـةً عـن هاتيْنِ المسلَّتين ، وأننَا سنراهُ بعدَ عودتنَا مِنَ الصعيدِ .



وذهبنَـا إلى الصعيـدِ المملـوءِ بآثـار أولئـكَ القدمَـاء ، وفــى مدينــةِ إخميم ، رأيتُ ما لاَ يُصَدقه العقلُ ، شاهدتُ بيتًا متسعًا ذا سقفٍ واحدٍ كبيرٍ ومَدَاخل كَثيرة ، وعليهِ نقوشٌ تمثلُ الحيوانَ والإنسانَ والســفنَ ، وما يكونُ مع المحاربين منْ أدواتٍ ، وقد أخبرنِى رائــدِى أن هــذا البيــتَ

قد صُنعَ ليكونَ عدةً للدفاعِ تُغنِى عنِ الرجالِ والسِّلاَح ، وأنه كانَ يهزمُ المعتدينَ وهو فى مكَانه ، فقد خلتْ مصرُ من الرجالِ بعد أن أغرقَ الله فرعونَ وجُنوده ، وفكَّرَ أهلهَا فيما يصنعونَ لردِّ الأعدَاء ، وكانَ هناكَ امرأةٌ منْ بيتِ الفراعنةِ تحكمُ إقليمَ إخميم ، فاستدعتْ ساحرةً مشهورةً ، كانَ السحرةُ يعترفونَ بقدرتهَا وتفوقهَا فى السحرِ ، ورَجَتْهَا أن تصنعَ شيئًا يحفظُ البلادَ ويردُّ الأعدَاء ، ما دامُوا قد أصبحُوا بغيرِ رجالٍ ، فاستجابت الساحرةُ لرغبةِ الملكةِ ، وصنعتْ هذَا البيتَ الذِى يُسَمَّى «البربا» وفيه صورُ السفنِ والرجالِ والخيلِ والبغالِ والحميرِ وعدَّة الحربِ ، وقالتْ للملكَة : إذَا أتاكم العدوُّ عنْ طريقِ البر أو البحْرِ ، تحركَ فى الصور ما يشبهه ، فإذَا كانُوا على الدَّواب تحركتْ صورُ الدواب ومَنْ عليها ، وإذا كانوُا فى السفنِ تحركَت صورُ السفنِ ومَنْ فيها ، فما تفعلونه بالصُّور يصيبُ الأعداءَ مثله ، فكانُوا إذا أتاهم عَدُو تحركت الصورُ التى تُشبهه ، فقطَعُوا أرجلَ الدوابِّ فى الصور ، وقلعُوا أعينَ الرجالِ وشقُّوا بُطُونهم ، فيصيب الأعداءَ مثلُ ذلكَ .

ولمحَ رائدِى أننى فى شكٍّ منْ هذَا الحديثِ فقال مُبتسمًا : «إنَّ مصرَ مَليئةٌ بالعجَائبِ يا شيخ عبد اللطيف ، وسَترى كثيرًا منها فى كلِّ مكَان» .

وعدنَا إلى القاهرةِ ، بعدَ أن شاهدتُ مثلَ تلكَ العجائبِ فى أنحاءِ الصعيدِ . ثم سافرنَا إلى الإسكندريةِ ، وذهبنَا إلى عمودِ السوارى .

عمودٌ من الصوانِ الأملَس ، عظيمُ الغلظ ، شاهقُ الطُّول ، يقربُ من سبعينَ ذراعًا ، وقطره خمسُ أذرع ، أقيمَ على قاعدةٍ

عظيمةٍ تناسبُ طُوله وضَخامته ، ووُضِعَ عَلى رأسِه قاعدةٌ أخرى كبيرة جدًّا . وقد وقفتُ أمامه أتأملُ صُنعه ، وأفكرُ كيفَ رُفِعَ ذلكَ العمودُ الضَّخم ، وكيف وُضِعت تلكَ القاعدةُ الثقيلةُ فوقَ رأسِه ، ثم انتهيتُ إلى أنَّ أولئك القوم كَانوا على علم بالهندسةِ العمَليةِ ، وخبرة تامةٍ برفعِ الأثقالِ ، وقد أخبرنى رائدِى أنّ هذا العمودَ كَان فى وسطِ أعمدةٍ أقَل منه ، تحملُ سقفًا متسعًا ، وكان فوقه قبةٌ عظيمةٌ ، ومن مَجْموع البناءِ كُله كانت دَار تسمى «دار العلْمِ» التى بناهَا الإسكندرُ الأكبرُ ، ولكنَّ هذَا الأثرَ العظيمَ ، كانَ ضَحيَّةً للجهلِ وعدمِ التقديرِ ، فقد تولّى الإسكندريةَ فى عهدِ صلاحِ الدينِ وَالٍ يُسمى «قراجا» فرأى ذلكَ البناءَ بأعمدَتِهِ الكثيرةِ وقُبته الهائلةِ ولم يدركْ قيمَتَهُ ، وفكّر فى أن ينتفعَ بأحْجَاره ، فهدَمَ الأعمدةَ الصغيرةَ وألقاهَا بشَاطئ البحر ، ظنًّا منه أنها تردُّ الموجَ عن سُور المدينةِ ، أو تمنعُ سفنَ الأعداءِ من أن تستندَ إليه ، ولكنه أفسدَ ذلكَ الأثرَ ولم يصلْ إلى مَا أراد ، واستعصَى عليه العمودُ الأكبرُ ، فظلَّ قائمًا يعلنُ عجزَ ذلكَ الوالِى وعدمَ تقديرِه .

ثم ذهبنَا إلى الشَّاطئ ، فرأيتُ أعمدةً كثيرةً تبلغُ أكثر منْ أربعمائة عمودٍ ، مكْسُورة أنصَافًا أو أثلاثًا من جنسِ عمودِ السوَارى ، يقربُ طولها من رُبعه أو ثُلثه ، وأخبرنِى الرائدُ أنها الأعمدة التى هُدمت ، فأسفتُ لتخريبِ هذَا الأثرِ الكبيرِ . ثم انتقلنَا إلى مَنارة الإسكندريةِ حيثُ كانت المرآةُ العجيبةُ ، وقد حَدثنى رائدِى أن تلكَ المرآة كانت تحفظُ مصرَ من غزو الرومِ ، وكان لها موظفونَ ينظرونَ فيها كلَّ لحظةٍ ، فإذا خرجَ العدوُّ منْ بلادِ الرومِ وركبَ البحرَ بجُنُوده ، ظهرت

صُورته فى المرآةِ فعلمَ المصريونَ واستعدُّوا لدفعِه ، وقد خَرَّبَ الرومُ هذه المرآة فى زمنِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ الخليفةِ الأُموى ، وكانت مصرُ فى ذلكَ الحينِ تابعةً للدولةِ الأُموية التى يقيمُ خَليفتها بدمشق . واستخدمَ الرومُ الحيلةَ فى تخريبهَا ، فبعثَ ملكُهم رجلاً من خواصِّه ذا دهاءٍ ليعملَ عَلى إبطالهَا ، فذهبَ إلى الشامِ حيثُ يقيمُ الخليفةُ ، مُظهرًا أنه هاربٌ منْ ملكِ الروم ، ورغبَ فى الإسلامِ ، وأسلمَ على يدِ الخليفةِ الوليد ، ثم أخذَ ينقبُ فى آثار الشام ، حتى استخرجَ بعضًا من الكنوز وحملهَا إلى الخليفةِ الوليدِ ، فلَّما رآها طمعَ فى غيرهَا ، فسرَّ الرومى لأنَّ خُطته تسيرُ عَلى مَا يشتهى ، وأَخْبره أن بلادَ الخلافةِ مليئةٌ بتلكَ الكنوز التى تركهَا الملوكُ السابقونَ ، وخصوصًا كنوزَ الإسكندر الأكبرِ ، التى أخفاهَا تحتَ منارةِ الإسكندريةِ .

وصدقَ الخليفةُ ، وبعثَ الرومى إلى الإسكندريةِ ، ومعه منْ يُعَاونه على استخراجِ تلكَ الكنوز ، وأخذَ الرومى فى نقضِ[1] المنارة ، وأزالَ تلكَ المرآة الحارسَة ، وتنبهَ أهلُ الإسكندريةِ لهذَا الخطرِ فثارُوا منْ أجْله ، لكنَّ الرومى تأكدَ منْ أن عملَ المرآة قدْ بطلَ ، وأنَّ حيلته قد تمَّت ، فهربَ إلى بلادِهِ عَلى سفينته تحت ستار الظلاَم ، وهكذَا خربَ الرومى تلكَ المنارة يا أبنائى ، كما خربَ كثيرٌ منَ اللصوصِ تلكَ الآثار الجميلةِ ، ونبشُوا القبورَ سعيًا وراءَ الكنوز ، وعثروا عَلى أنواعٍ كثيرةٍ منَ القبور أعجبهَا قبورُ العسل .

---

(١) نقض الشئ : نقْضا : أفْسدهُ بعد إحْكَامِهِ ونقض البناء : هَدمه.

وأذَّنَ الظهر فقطعَ الحديثَ ، وقام الشيخُ إلى الصلاةِ ، وقام الطلابُ بعد أن أجَابهم الشيخُ إلى درسٍ آخرَ في هذا اليومِ بعدَ العشاء .

لصوص الآثار

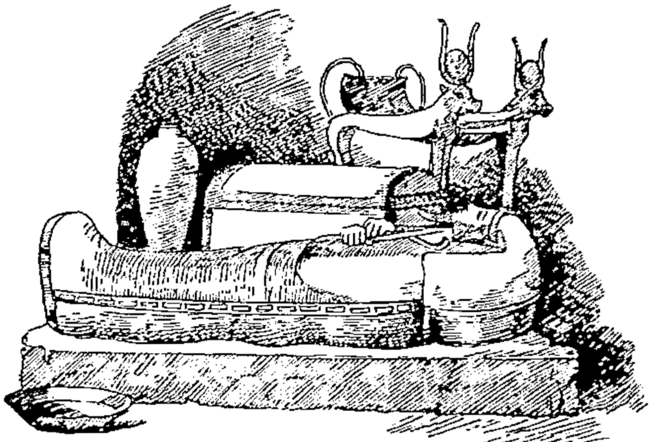
انتظمتِ الحلقـةُ بعـدَ صـلاةِ العشـاء ، وجلـسَ الأسـتاذُ إلى طُلابـه الذينَ يحرصونَ علـى دَرسـه ، وقـد أقبلُـوا فرحـينَ ، ليسـمعُوا أخبـارَ اللصُوص ، وتخريبِ الآثار ، وقُبور العسَل ، وأخذَ الشيخُ يقولُ :

مصرُ يا أبنائِي مَليئة بالآثـار العظِيمـة ، ولكـنَّ الأيـدِى تمتـدُّ إليـهَا وتُخَربها ، مع أنَّ أكثرَ الملوكِ يحرصـونَ عليـها ، ويمنعونـهَا مـنَ العبـثِ ، وإنْ كانُوا أعداءَ لأربابهَا الذينَ يُخَالفونهم فى الدينِ ، لتبقَـى هـذِه الآثـارُ شاهدًا يُنبئُ عنْ تلكَ الأزمانِ الماضيَـةِ ، ويقنـعُ الجبَّارينَ بالفنَـاء ، ويُريـهم مَصَايرَ الإنسـانِ مـهمَا بنـى وشَاد ، ومـع تلـكَ العنايـةِ يخربـهَا النـاسُ بـاحثينَ عمـا يتخيلُونَ فيهَا من كنوز ، ويُقَوى أطمَاعَهم ما يجدونَ تحتَ الأرضِ مـنْ قبـور فَسيحة بـها كثيرٌ مِنْ مَوْتَـى القدمَاء ، قـد لُفُّـوا فـى أكفَـانٍ مـن ثيـابَ القنب(١) ، يكونُ علـى الميـتِ منـها نحـو ألـفَ ذراعٍ ، لأنَّ القدمـاءَ كـانوا يكفنون كُلَّ عضوِ عل انفرادِ كـاليدِ والرجـلِ والإصْبـع ، ثـم يَلُفُّـونَ الجثـةَ كُلَّهَا لفًا مُحكمًا ، حتى تصيرَ مثلَ الحملِ الكبيرِ ، فيـأخذُ اللصـوصُ تلـكَ الأكفـانِ ، وأكـثرهم مـنَ الأعـرابِ وأهـلِ الريـف ، فمـا وجُـدوه مُتماسكًا اتخَـذُوه ثيابًـا أو بـاعُوه للورَّاقـينَ ، وقـد اشـتدَّ طمـعُ هـؤلاءِ الباحثينَ عن الكنوزِ حتى ظَنُّوا أنَّ كُلَّ حفرةٍ تُؤدى إلى كنزٍ ، وأنَّ كُلَّ تمثالٍ تحت قدميهِ مالٌ عظيمٌ ، فأخذُوا يحتـالونَ فـى تخريبـه ، ويبـالغونَ فى تهديمِهِ ، ويفسدونَ صورَ التماثيل ، وينقبونَ الأحجَارَ ، نقـبَ مـن لا يشكُّ فى أنها صَناديق مُقفلة عَلى ذخائرِ كثيرةٍ ، ويدخلونَ شـقوقَ الجبالِ دخولَ اللصوصِ الخائفينَ .

---

(١) القُنَّب : نباتٌ حوْلى زراعىٌ ليفى من الفَصِيلةِ القنَّبيَّة تُفْتَلُ لحاؤه حبالا

ولم يقتصر البحثُ عن تلكَ الكنوز عَلى الفقراء ، ولكنَّ كثيرًا من الأغنياءِ قد أضاعُوا فيه أموالهم ، وطمعَ فيها كثيرٌ ممن عَاقهم الفقرُ عن البحثِ ، فاحتالُوا عَلى بعضِ الأغنياءِ وأوهَمُوهُم أنَّ لديهم عُلُومًا خاصَّة تفتحُ تلكَ الكنوز ، ولا ينقُصُهم إلاَّ المال ، ولم يزالُوا بهم حتى صَدَّقوهم فَخَسروا أموالَهم وعُقُولهم .



وقد عَثر أولئكَ الباحثونَ على قبور كثيرةٍ ، ووجَدُوا فيها توابيتَ متعددةَ الأشكالِ ، من خشبِ الجميز ، أو الرخامِ ، أو الصوانِ ، لكنْ أعجبها قبورُ العسلِ ، فقد كانَ جماعةٌ ينبشونَ عندَ الأهرامِ ، فصادفُوا زيرًا مختومًا ، ولما فَضُّوا الختمَ ، وجدُوا الزيرَ مملوءًا بالعسلِ الذِى لم يتغيَّرْ طَعْمه ، فأكلُوا منه ، وبينما هم يستخرِجونَ العسلَ منَ الزّيرِ ، علقَ بإصبعِ أحَدهم شعرٌ فَجَذبه ، فإذا طفلٌ صغيرٌ متماسكُ الأعضاءِ رطْبُ البدنِ ، عليه بعضٌ منَ الحلى والجوَاهِر .

وقد دَفَعهم إلى مُواصَلَةِ البحْثِ ، ما يجدُونه أحيانًا على جباهِ الموتى وعُيُونهم وأنوفهم من ورقِ الذهبِ كأنه القشر ، وقد يجدونَ ذلكَ على جميعِ الميتِ لتكرار العبارة ، ويظهرُ من حَالِ أولئكَ القدماء يا أبنائى أنهم كانوا يضعونَ مع الميت شيئًا من الذَّهَب ، ويدفنونَ معه مَالَه ، ومتاعَه ، كما يفعلُ بعضُ طوائفِ الحبشةِ اليوم ، لأنهم يتشاءمونَ بذلكَ المتاعِ ويخافونَ أن يمسوه أو يتصرفُوا فيه ، فمن طريفِ ما حَدَث ، أن قريبًا لنا كانَ بالحبشةِ ، وقد أقامَ بها مدةً اكتسبَ فيها مالاً كثيرًا ، منه مائتا أوقية من الذهبِ ، ووافَاه أجَلُه هناك ، ولم يكُن له من يأخذُ مَاله ، فتركَ الأحباشُ هذَا المالَ ولم يمسُّوه ، وبحثُوا عمن يأخذَه ، حتى اهتدُوا إلى رجلٍ مِصْرى كانَ صديقًا للميتِ ، وطلبُوا منه أخذَ هذَا المالِ فأظهرَ امتِنَاعه ، ولكنهم أرغَمُوه عليه ، فأخذَه وهو يعدُّ ذلكَ تفضُّلاً منه !

ومن أعجبِ ما يوجدُ فى تلكَ المدافنِ ، أصنافُ الطيرِ والوحوشِ ، والحشراتِ المكفنةِ فى أثوابٍ كثيرةٍ ، فقدْ عثر بعضُ الناسِ تحتَ الأرضِ عل بيتٍ مُحْكَم ، فلمَّا فتحوهُ وجدُوا فيه لفافةً كبيرةً من ثيابِ القنب ، فأزالُوا اللفائفَ الكثيرةَ ، فإذَا تحتها عجلٌ كما هو لم يتغير ، وقد عَثر آخرونَ على مثلِ تلكَ اللفائفِ ، فلما أزالوهَا وجدُوا تحتهَا صَقرًا كَمَا هو ، لم تسقطْ منه ريشةٌ واحدةٌ ، ووجدَ آخرون قطًّا ، وآخرون وجدُوا عصفورًا ، ووجدَ غيرهم خُنفساء ، وكلها مَلْفوفة لفًّا محكمًا .

وحينما كنتُ بمدينة قُوص بالصعيد ، حَدثنى حَاكمهَا عن غريبةٍ من غرائبِ تلكَ العنايةِ بالحيواناتِ والحشَرَات ، فقد كانَ جماعةٌ هناكَ

يبحثونَ عنِ المطالبِ ، فانْخَسفتْ بـهم قطعـةٌ مـنَ الأرضِ مُوهمـة أنَّ بها كنزًا دفينًـا ، ووصـلَ الخـبرُ إلى الحـاكم ، فأرسـلَ جماعةً مُسَلحين ليحافظُوا عل الكنزِ الذِى ظَنُّوه فى ذلكَ المكانِ ، ثم حَفَروا فـى تلـكَ الهوةِ فعثروا على زيرٍ كبيرٍ ، فاشـتدَّ بـهم الفـرحُ ، وتـأكدُوا أنـه مملـوءٌ بالذهبِ ، وأسرعُوا بفتْحِه فوجدُوه مملوءًا بلفائفَ مثل الأَصَابع .

ولما كشفُوا عنْ واحدةٍ منها وجدُوا سمكًا صغيرًا مما يُسمى «الصـير» إذا نفخَ طَار ، ثم أزالُوا اللفائفَ عنْ واحدةٍ أُخرى ، فوجدُوا بها مثـلَ مَا بالأولى ، فحملُوا الزيـرَ إلى «قُـوص» ووضَعُـوه بـين يـدَى الحَاكم ، واجتمعَ إليه مائةُ رجلٍ ، وأخذُوا يحلونَ اللفائفَ فوجـدُوه كلـه صـيرًا مكفنًا ، ولم يستطيعُوا معرفة سِره . وقد رأيتُ كثيرًا من المدافنِ فـى أنحاءِ مصر ، ووجدت فـى بعـضِ المـدنِ مغاراتٍ تحتَ الأرضِ ، مَبْنيـة بإتقانٍ ، وفيها عددٌ لا يحصَى منْ رمم الكلابِ المكفنـةِ ، وشـاهدتُ فـى بعضهَا تِلالاً من تلكَ الكلابِ تزيدُ عَلى مائـةِ ألـفِ رأسِ كلـبٍ ، وكلـها مُكفنة بقطعِ القنب ، ومن غريبِ ما سمعتُ يـا أبنائى مـن ثُقَـاةِ بلـدة «بوصير» ، أنهم وجدُوا قبرًا من الحجرِ ، ففتحُوه فـإذَا بـه قـبرٌ آخـر ففتحُوه ، فوجدُوا به تَابوتًا ففتحُوه ، ثم وقفُوا ذاهلينَ لأنهم وجدُوا به سِحْلية ، ولا يزالونَ يتندَّرونَ بهذَا الكشفِ حتى أخبروني به .

هذِه بعضُ غرائبِ القدمَاء ، المنتشـرةِ فـى مُـدن مصـرَ وقُراهـا ، تشهدُ بعظَمتهم ، وتتحدثُ بقُدْرتهم وفنهم ، وقـد رأيـتُ بجانبـهَا أبنيـةً حديثـةً ، تتجلَّـى فيـها روعـةُ الهندسـةِ والنظَـام ، والدقـةِ والإتقـانِ ، وأعجبها القدورُ الغريبة .

ونظرَ الشيخُ فوجدَ أنَّ الوقتَ قد تأَخَّر ، فصمــتَ قليـلاً ثـم قـال : «موعدنَا صبَاحَ الغدِ إنْ شَاء الله» .

القدور الغريبة

انتظمتِ الحلقةُ فى الصباحِ ، وقد أسرعَ الطلابُ ليسمعُوا حديثَ القدور الغريبةِ ، والهندسةِ المصريةِ الحديثةِ ، وسُرَّ الشيخُ بما يبدُو على وُجُوههم من نشاطٍ واهتمامٍ ، ثم قالَ :

بجانبِ تلكَ الآثار العظيمةِ القديمةِ فى مصرَ ، تقومُ الأبنيةُ الحديثةُ، حيثُ تتجلّى فيهَا الهندسةُ البارعةُ والإتقان والنظامُ ، وقلمَا يجدُ الإنسانُ بمصرَ مكانًا خاليًا منْ مصلحَةٍ ، والمصريونَ يختارون مَنَازلهم فى أمكنةٍ عَاليةٍ ، ويجعلونَ منافذهَا حيثُ تهبُّ ريحُ الشمالِ المحبوبةِ ، ولهم دِرَاية فائقةٌ فِى فَنِّ البناءِ ، لم أرَ مثلهَا فى جميع المَمَالكِ التى زُرتها ، فإذا أرادُوا بناءَ دار أحْضَروا المهندسَ ، وفوضُوا إليه العملَ ، فيذهب إلى الموضعِ الذِى سيقامُ عليه البناءُ ، ويتأمله وكأنه ينقشُهُ فى قَلْبه ، ثم يقسمهُ فى ذِهنه ، ويشرعُ فى البناءِ على الرسمِ الذِى رآه . وهم لا يقيمونَ البناءَ دفعةً واحدةً ، ولكنَّ المهندسَ يقصدُ إلى جزءٍ منَ المكانِ الذِى رآه ، فيعمره ويكمله بحيثُ يسكنُ على انفرادٍ ، ثم ينتقلُ إلى جزءٍ آخر ، ويصنعُ به ما صُنع بالأولِ ، وهكذَا حتى تتم جملة البناءِ بإتمامِ هذِه الأجزاءِ ، فيصبحُ المبنى كتلةً واحدةً ، لا خللَ فيه ولاَ نَقْص .

وأغربُ من ذلكَ يا أبنائى ، إحْكَامهم أساس المبانِى بأوتادٍ رَاسية توثقها وتقويهَا ، ويستخدمونَ لذلكَ طريقةً غريبةً تقدرهَا على الاحتمالِ مهما ارتفعَت ، فيحفرونَ قطعةً من الأساسِ حتى يصلَ الحفرُ إلى الأرضِ الندية ، ويضعونَ عليها كتلةً من خشَبِ الجميز

أو ما يُشَابهه ، ثم يبنون فوقَ تلكَ الكتلةِ نحو قامتينِ بالطوبِ والجير ، حتى يصيرَ البناءُ مثل الفرن . فيأتى الغواصُون ويحفرونَ تحتَ الكتلةِ ، وكلمَا تخلخلَ ما تحتها وثقلَ عليها البناءُ غَاصَت فِى الأرضِ ، ولا يزالُ الغواصونَ يحفرونَ ، والبناءُون يبنونَ ، والبناءُ نازلٌ ، حتى تستقرُّ الكتلةُ على أرضٍ صَلبةٍ فيتركُوا هذَا البناءَ إلى غَيره ، ويقيمُوه قريبًا منه ، بحيث لا يبعدُ أكثر من أربعِ أذرعٍ ، وهَكَذَا فى جميعِ طُولِ الأساسِ ، حتى يتمُّوا تلكَ الأبار ثم يردمُوهَا ، فتكونَ أوتادًا رَاسيةً ، فيبنى الأساسُ ويرتفعُ البناءُ .

والأعجبُ من ذلكَ حمامَاتُ مصرَ ، دخَلتها يا أبنائى فوجدتهَا متعةً من متعِ الدنيا ، فسيحَة الأحواضِ مُتسعة الجوانب ، بها مقصُوراتٌ كثيرةٌ ، جُعِلَ بعضها للخاصَّة حتى لا يختلطُوا بالعَامة ، وفى وسطِ تلك المقصُوراتِ بركةٌ من الرخَام الجميلِ حَولها أعمدةٌ بديعةٌ ، وفوقَ هذِه الأعمدِة قبةٌ لطيفةٌ مُزَخْرفة ، وجميعُ أرضِ الحمَّامِ من الرخَامِ اللاَّمع ، أما السقوفُ والجدرانُ فقد نُقِشَت وزُخْرِفت ، وصَارت فى منظرٍ يُريحُ النفسَ ، فلا يودُّ من دخَلَ الحمامَ أنْ يُفَارقه ، والأعجبُ من ذلك مستوقد الحمام وقدُوره ، فقد جُعِلَ على بيتِ النار قبةٌ مفتوحةٌ يَصِلُ إليها لسانُ النار ، وَصُفَّ عَلى أفاريز هذِه القبة أربعُ قدور منَ الرصاصِ ، يتصلُ بعضهَا ببعضٍ قربَ أعاليهَا بأنابيبَ مِنَ الرصاصِ ، فيخرجُ الماءُ من البئِر ، ثم يجرى فى مجرَى أُعِدَّ له حتى يصلَ إلى فَسْقية عظيمةٍ ، ومِنْ هذه الفسْقية يدخلُ القدر الأولى على حَاله باردًا ، ثم يجرى من هذِه القدرِ إلى الثانية فيسخَّنَ قليلاً ، ثم إلى الثالثة فيسخَّنَ أكثر ، ثم يصلُ إلى الرابعة فتتناهى

حَرارتـه ، ومـن الرابعـة يخرج إلى مَجَارى الحمَّام حـارًا ، ولا يـزال جاريًا مع تلكَ الحرارةِ التى اكتسبهَا بأيسرِ نَفَقة ، وفى أقصـرِ وقـتٍ . أليـسَ ذلـك يـا أبنـائى عمـل مفكريـنَ وتقديـر مُدَبريـن ؟! أتـدرونَ كيفَ وصلُوا إلى هذِه الفكرةِ العجيبة ؟! ، إنهم حاكُوا عمـلَ الطبيعـةِ فى بطُون الحيـوانِ ، وطبخـهَا الغـذاءَ بنظـامٍ وترتيـب ، فـإنَّ الغـذاءَ ينتقلُ فى جوفِ الحيوانِ مـن أداةٍ إلى أداة ، وكـلُّ واحـدةٍ منـها تقـوم بعمليةِ هضْمٍ خاصَّةٍ ، فيحدثُ للغذاءِ مقـدارٌ مـنَ النضـجِ ، ولا يـزالُ ينتقلُ منْ أداةٍ إلى أُخرى ، حتى يصلَ إلى الأخيرةِ وقدْ تمَّ طَبْخه .

وقد وجدتُ موقدَ النـار مفروشًـا بنحـو خمسينَ إردبًـا مِـنَ الملـحِ ، أتدرونَ لماذا وضَعُوا ذلكَ الملحَ فى الموقدِ ؟

لأنَّ الملـحَ مـنْ طبعـهِ أن يحفـظَ الحـرارة ، فـهم يسـتغلونَ كُـلَّ مَا يَعْرفونه أحسنَ استغلالٍ ، وينتفعونَ به خيرَ انتفاعٍ .

هـذا بعـضٌ مـن هندسـةِ المصريـينَ وصِنَاعتـهم ، ولعلكُـم تريـدونَ أن تعرفُـوا شـيئًا مما يسـيلُ لـه اللعـابُ ، وتحبـونَ أن تـروا كيـفَ يـأكلُ أصحـابُ تلـك العجـائب ، ومـا ينعـم بـه سـاكنو تلـكَ الديـار ! إنكُـم ستدهشـونَ حينمـا تسـمعونَ عـن أطعَمـةِ المصريـينَ وافتنَانِـهم فـى صنعـهَا ، مما لم أره فـى غيرهَـا مـن البـلادِ . أسمعتُـم عن النيـدَة ؟ هـل أكلتـم هَريسـة الفُسْـتق ، وَسـت النوبـة ؟ أعلمتـم كيفَ يُصنعُ رغيفُ الصِّينية ؟ !

وسالَ لعابُ الطلبةِ ، واسْتعدُّوا لسـماعِ مَا يحدثـهم بـه الشـيخُ عـن هـذه الأطعمةِ الغريبة ، وهم يحركونَ ألْسِنتهم فى أفواهِهم ، ولكنَّ المـؤذن أعلـنَ الصَّلاَة ، فأعلنَ الشيخ أن الدرسَ القادمَ بعدَ العشاءِ مِنْ هذَا اليومِ .

عجائب الطعام

ارتقبَ الطلبةُ صلاةَ العشاءِ فى شـوقٍ ولهفـةٍ ، ومَا كـادتِ الصـلاةُ تنقضى حتى أسرعُوا إلى الحلقةِ مُـتزَاحمين ، ليجـدَ كُـلٌّ منـهم مَكانًـا قريبًا مِنَ الشيخ ، وأقبل الأستاذُ بعدَ أن أتمَّ صـلاةَ الفـرضِ والسـنة ، واتخذَ مجلسه ، وحمدَ الله وصَلَّى عَلى رسُوله ثم قال :

تركتكُم مع رغيفِ الصينية وهريسَـةِ الفسـتق ، فابتسـمَ الطـلابُ لظرف الشيخ ولطفِ حديثه ، وابتسمَ الشيخُ لابتسَامهم وسُـرُورهـم ، ثم استأنفَ قائلاً :

أما النيدةُ يا أبنائى فهى طعـامٌ فيـه حَـلاَوة ، يتخـذُ مـن القمـحِ ، ويكونُ أحمرَ مائلاً إلى السوادِ ، ويصنَعُونه بأن يضَعُوا القمحَ فـى المـاءِ حتى يخرجَ نِشَاه ، ثم يُصَفى ، ويطبخ الماءُ حتى يغلُـظَ ، فيـذر عليـه الدقيقَ حتى يعقدَ ، ثم يُرفعُ عنِ النار ويترَكُ حتى يَـبْرُدَ ، ويبـاعُ فـى السوقِ بسعرِ الخبزِ ، وتُسمى هذه «نيـدةُ البـوش» ، وقـد يطبـخُ ذلـك الماءُ وحْدَه بغيرِ دقيقٍ حتى ينعقِدَ ، وتُسـمى هـذه «النيـدةُ المعْقُـودة» وهى أغلىَ مِنَ الأولى .

أما سِتُّ النوبة ، فهى طعامٌ مصنوعٌ منَ الدجاجِ والحلْوى ، فيسلق الدجاجُ ، ثُم يرمَى فى مَاءِ الوردِ ، ويُلقى عليه بندقٌ مدقُوقٌ أو فُستق أو ورد ، ويطبخ حتى ينعقدَ ، ثم يتبلُ بالتوابلِ ويُرفع ، وتُسمى هـذه «الفُستقية» و «البندقية» و «الوردية» وإذا عُقـد بيـذر الرجْلَـة سُـمى «سِـتّ النوبـة» لأن هـذَا البـذرَ يجعلـهَا سَوْداء ، ولهـذَا يُطلقـونَ عليـها ذلكَ الاسم .

أما هريسةُ الفســتقِ فَلذيـذةٌ جـدًّا ، ومـنْ أدامَ أكلـهَا صـارَ سمينًـا ، ويصنعونهَا من الدجَاج والفستقِ ومَـاءِ الـورد ، فيؤخـذُ لحـمُ الدجـاجِ المسلوقِ المشرَّحِ إلى شرائحَ صغيرةٍ ، بنسبةِ جــزءٍ ، ويضـافُ إليـه مـاءُ الوردِ بنسبة جزأيْنِ ، ثم يضافُ إليه مثلُ ثُمنِ الجميـعِ أو تُسْـعه مـن الفستقِ المقشور المهروسِ ، ثم يمسحُ اللحمُ المشرحُ بالسيرج ، ويوضعُ فـى الوعـاءِ بحيـث يَشـمُّ النـارَ فقـط ، ثـم يسـكبُ عليـه مـاءُ الـوردِ ، ويضربُ حتى ينعقدَ ، فيلقى عليه الفسـتقُ ، ويضـربُ حتـى يختلـطَ ثم يُرفع .

ولكن أعجـبُ مـا رأيـت يـا أبنـائى مـن تلـكَ الأطعمـةِ هُـو رغيـفُ الصينيةِ ، إنه ليس رغيفًا . ولكنه عَجيبةٌ منَ العجائبِ !

- وكيف يُصنعُ يا أستاذى ؟

- إن الله معَ الصابرينَ يا بنى !

فى هَذِه العجيبةِ ، يؤخذُ ثلاثونَ رطلاً من الدقيقِ الأبيضِ الجيدِ ، مع خمسـةِ أرطـالٍ ونصْـف مـنَ السـيرج ، ويصنـعُ منـها عجينـةٌ ثـم تقسمُ هذه العجينةُ قسمين ، أما القسـمُ الأول ، فيبسـطُ رغيفًـا فـى صينية مُتَّسـعةٍ مـنَ النحـاس قـد أُعِـدت لذلـكَ ، قطرهَـا نحـوَ أربعـةِ أشبار ، ولها عرى متينة ، ثم يعبأ على الرغيفِ ثلاثة خراف مشـوية ، محشـوة الأجـوافِ بلحـم محمـر بالسـيرج والفسـتق المـهروسِ والأفاويـة المعطرة الحارة ، كالفلفلِ والزنجبيلِ والقرفةِ والمصطكى .

- والقسمُ الثانِى يَا سيدى الشَّيخ ؟

- لا تتعجَّل يا بنى ، فما زلنا فى القسمِ الأولِ ، فقد وُضِعَت الخرافُ المحشوةُ الأجْواف باللحمِ فى الصينيةِ عَلى القسمِ الأول ، ثم يُرش عليها ماءُ وردٍ ممزوجٍ بالمسكِ ، ويجعلُ فوقَ الخرافِ وبينها عشرونَ دجاجةً ، وعشرونَ فَروجًا ، وعشرونَ فرخًا ، بعضهَا مَشْوى وبعضهَا مَحْشو بالبيضِ ، وبعضهَا مَحْشو باللحمِ ، فإذَا نُظم ذلكَ كلـه ، رُشَّ بماءِ الوردِ الممزوج بالمسكِ والعودِ ، وهنَا يأتِى دورُ القسمِ الثانى ، فيغطَّى به القسمُ الأول بعدَ أنَّ يمد رغيفًا ، ثم يلحمُ بينَ الرغيفيْنِ بتقريبهمَا منْ رأسِ الفرنِ ، حتى يتماسكَ العجينُ ويأخذ فى النضجِ ، فترسلُ الصينيةُ فى الفرنِ رُوَيدًا رويدًا ، وينتظرُ عليها حتى ينضجَ الخبزُ ويتورّد ويُحَمَّر ، ثم يخرجُ ويمسحُ بإسفنجَةٍ ، ويرشُ عليه ماءُ وردٍ ومسكٍ ، ثم يرفعُ للأكل .

هَذا لونٌ من الطعامِ فى مصرَ ، وأظنكُم تستطيعونَ معرفةَ آكِليه ، فما فيه ينبئ بأنه طعامُ الملوكِ وأربابِ النعمةِ ، يصنعُ لهم ليحملُوه إلى متنزهَاتهم البعيدةِ وأماكنَ صيْدهم ، لأنه سهلُ الحملِ ، جميلُ المنظرِ ، مشكُورُ المخبرِ ، يحفظُ الحرارةَ مدةً طويلةً ، أما العوامُ فلا يعرِفونه ، وأكثرُ غِذَائهم الصير والخبزَ والنيدةَ ، ومنهم أصنافٌ يأكلونَ الفأرَ الذِى يعيشُ فى الصَّحَارى والحقولِ ويُسمونه «سمانى الغيط» ، وبالصعيدِ قومٌ يأكلونَ الثعابينَ والميتاتِ منَ الحميرِ والدَّواب ، قد اعتادُوا ذلكَ لفقرِهم ، وفى البلادِ السَّاحليةِ كدمياط والإسكندرية ، يكثر السمكُ ويطبخُ بكل ما يطبخُ به اللحمُ ، وتمتازُ مصر بغرائبِ البحرِ ، منَ السمكِ والحيوانِ الذِى لا يوجدُ فى غيرهَا ، أسمعتم عَنِ السمكِ الرعاد ؟ أرأيتم سمكَ الأحلامِ ؟ أسمعتم عن مغامراتِ فرسِ النهر ؟ !

غرائب البحر

أما سمكُ الأحلامِ يا أبنائى ، فهو سمكٌ عجيبٌ ، يصادُ من بحرِ الإسكندريةِ ، ويُسميه المصريونَ «السرب» إذَا أكلَ منه شخصٌ رأى فِى نومِه أحلامًا مُفزعة ، ويروى المصريونَ الكثيرَ المضحكَ عمن يَسُوقهم الحظُّ إلى الأكلِ منْ هذَا السمكِ ، إذْ يقضونَ ليْلهم فى خوفٍ ، وتظهرُ لهم فى النومِ صورٌ غريبةٌ ، يتحدثونَ عنها إذا استيقظُوا فتبعث عَلى الضحكِ والسُّخريةِ .

وأعجبُ مِنْ هذَا ، السمكُ الرعاد ، وسَمَكته تبعثُ فيمنْ يمسكهَا رعدَةً مُخِيفةً ، يصحبهَا تخديرٌ شديدٌ وثقلٌ فِى الأعضَاء ، وعجزٌ عنِ القبضِ على الأشيَاء ، ويَسْرى التخديرُ إلى العضُدِ والكَتفِ ثم إلى الجنبِ كُلِّه ، ويحدثُ ذلكَ لمن يَلمسهَا أيسرَ لمسٍ ، وقد أخبرنِى صيادُهَا أنها إذَا وقعَتْ فى الشبكةِ اعترى الصيادُ تلكَ الرعدَةِ الشَّديدَة ، حينما يصبحُ بينها وبينه مقدارَ شبرٍ تقريبًا دونَ أن يضعَ يدَه عليهَا ، فإذَا مَاتت بَطُلَت تلكَ القوة ، وهى قليلةُ الشوكِ كثيرةُ الدسمِ ، لها جلدٌ سميكٌ جدًّا ينسلخُ عنها بسُهولةٍ ، ولا يُستطاعُ أكْله .

ومن المدهشَاتِ هُنَاك ، السلحفاةُ البحريةُ ويُسَمونها «الترسة» وهى مثلُ السلحفاةِ ، لكنها كبيرةُ الحجمِ جدًّا ، تزنُ الواحدةُ منها ما يقربُ من أربعةِ قناطير ، وقد رأيتها بالإسكندرية ، ولحمهَا يُقطع ويُباعُ كلحمِ البقرِ ، ويظهرُ فِى هذَا اللحم ألوانٌ مختلفةٌ ، ما بينَ أخضرَ وأحمرَ وأصفرَ وغيره من الألوانِ الكثيرةِ ، والأعجبُ مِنْ ذلكَ بيضهَا ، فهى تخرجُ من جوفهَا نحوَ أربعمائة بيضةٍ كبيضِ الدجاجِ ،

إلا أنه لـينُ القشـرِ ، وأهـلُ مصـرَ يأكُلُونـه ، ويتخـذُونَ منـه أصنـافَ الطعامِ ، وقـد صَنعـتُ بنفسـى مـن هـذَا البيـضِ عجّـةً ، فلمَّا جمدَ أدهشني أنَّ فيه تلكَ الألوانِ التى تظهرُ فى لحمِ السمَكَة .

وهناكَ حيوانٌ يعيشُ فى ماءِ النهر ، أضْخَـم مـن الترسـةِ ، وَأَشَـد قوةً ، وله مغامراتٌ عنيفةٌ يُسمى «فرسُ النهر» وهو حيـوانٌ عظيـمُ الصـورةِ شـديدُ البـأسِ ، يشبهُ الجاموسَ أو الفرسَ ، لكنه بالجاموسِ



أشبه وإنْ لم يكنْ له قُرون ، وإذا صَهَلَ كان صَوته كصـوتِ الفـرسِ ، وهو قوىُّ الأنيابِ ، منتفخُ الجـوفِ ، قصـيرُ الأرجـلِ ، شـديدُ الوثـبِ ، سيئُ الخلقِ كالخنزيرِ الكبـيرِ ، لـه فـم واسـعٌ إذَا فتحـهُ كَان كـالحفرةِ الكبيرةِ ، وهو يعيشُ فى شمالِ مصرَ وخاصَّة فى بحرِ دميـاط ، ويتتبـعُ

المراكبَ ويهاجمهَا ، فيغرقهَا ويهلك منْ ظفر به مِنْ ركابهَا ، وقد كَانتْ واحدة منه ببحرِ دمياط تهاجمُ السفنَ وتغرقها ، حتى أصبحَ السفرُ متعذرًا فى تلكَ الجهة ، وفى ناحيةٍ أخرى كانتْ واحدةٌ تهجُم على الجاموسِ والبقرِ ، وتفسدُ الحرثَ والنسلَ ، حتى ضجَّ الناسُ منها وحاولُوا اصطيادهَا بكلِّ حيلةٍ ، وجمعُوا لها الرجالَ وألوانَ السلاح ، ونَصبُوا لها الشباكَ فلم يستطيعُوا صيدهَا ، ولما ضاقَ بهم الأمرُ سمعُوا عنْ جماعةٍ فى مصرَ منَ «المريسى» بالسودانِ يزعمونَ أنهم يحسنونَ صيدهَا ، فاستنجدُوا بهم ، وأقبل هؤلاءِ ومعهم المزَاريق الحادّةُ ، فهاجموهَا وقتلوهَا فى أقصرِ وقتٍ وبأهونِ سَعْيٍ ، وأتوْا بهَا إلى القَاهرة ، فتجمعَ الناسُ حولها يعجبونَ من هذَا الفيل البحرى المخيفِ ، وقد شَاهدتها فعجبتُ لها أشدَّ العجَب . ولقد رأيتُ بمصرَ يا أبنائى عَجَائب أخرى، ليستْ سمكًا ولا حيوانًا ولا آثارًا ، ولكنها أشجارٌ وفَواكه ، أسمعتم عن اللَّيمونِ المركب ؟ أرأيتم خيارَ شنبر ؟ أسمعتم عن الدهنِ الذِى يباعُ بأضعافِ وَزنه ذهبًا ؟ أرأيتم ليمونةً فى حجمِ البطيخَة ؟

وانتبه الشيخُ فوجدَ أنَّ الليلَ قد انتصَف ، وأن الحديثَ قدْ سَرقه ، فالتفتَ باسمًا إلى الطلابِ الذينَ غرقُوا فى قصَّةِ الطعامِ والبحرِ ، ثم قال :

«موعدنَا غدًا فى الصباحِ إنْ شاءَ الله».

غرائب النبات

ما كادَ الصباحُ يشرقُ ، حتى أسرعَ الطلابُ وانتظمُوا حولَ شيْخهم ، ليسمعُوا حديثَ النباتِ العجيبِ ، وسرَّ الأستاذُ لما رأى فى وجُوههم من شوقٍ واهتمامٍ ثم قال :

سأبدأ بالدهنِ النادر ، الذِى يبحثُ عنه الناسُ ، ويدفعونَ فيه أضعافَ وَزنه ذهبًا ، لأنه يُستخدمُ فِى الطب ، ولا يوجدُ إلا بمصرَ خَاصَّة ، ويؤخذُ مِنْ شجرٍ هناكَ يُسمى «شجر البلسان» ينبتُ فى منطقةٍ صغيرةٍ فى مكانٍ واحدٍ منْ مصرَ كُلها ، هو «عين شمس» التى حدثتكم عنْ آثارهَا ، فى موضعٍ هناكَ محاط عليه مُحتفظ به ، مسَاحته سبعة أفدنة ، ويرتفعُ هذَا الشجرُ نحوَ ذراع ، وعليه قشرانِ ، الأعلىَ أحمر خَفيف ، والأسفلُ أخضرُ سميك ن ويؤخذُ منه الدهنُ بطريقةٍ تحتاجُ إلى مهارةٍ وتَدْريب ، فتقشرُ الأوراقُ ، و يشدخ[1] القشر الأعلى بحجر ، ويشقُّ القشر الأسفل شقًّا لا ينفذُ إلى الخشبِ ، لأنه إذا نفذَ إلى الخشبِ لا يخرجُ منه شىءٌ ، ثم ينتظرُ حتى يسيلَ منه ما يشبهُ الماء ، فيجمعُ ويوضعُ فى زجاجاتٍ أُعِدَّت لذلكَ .

ويستمرُّ العملُ حتى ينقطعَ هذَا السائلُ ، فإذا مُلئت الزجاجاتُ ، سُدت سَدًّا محكمًا ، ودُفنت فى الأرضِ إلى فصلِ الحرارة ، فتخرجُ وتعرضُ للشمسِ ، وتلاحظُ كلّ يومٍ فيوجدُ بها دهنٌ طَافٍ فوقَ رطوبةٍ مَائية ، فيقطفُ الدهنُ وتعادُ الزجاجاتُ إلى الشمسِ ، وهكذَا تُعرض الزجاجاتُ ثم يقطفُ الدهنُ ، حتى ينتهِى مَا فيها ، ثم يجمعُ

---

(١) تشدَخ : تكسَر

الدهنُ كله ويطبخُ فى خفـاءٍ ، بطريقـةٍ لا يعلمـهَا إلا أصحابـهَا ، لأنَّ المتولينَ لهذَا العمِل يكتمونَ سِرَّه ، ولا يطلعونَ أحدًا عليه .

وهـذا الشـجرُ العجيـبُ لا يثمـرُ ، ولذلـكَ لا تسـتنبتُ أشـجاره بالبذُور ، ولكن تقطعُ صِغاره منَ الأم ، وتغرسُ فى الأرضِ فى أشـهرٍ مَعْلومـة ، فتعلـق بـها وتنمُـو ، والنـاسُ يتعبـونَ فـى البحـثِ عـن هـذا الدهـنِ ، ويدفعـونَ فيـه الأثمانَ الغاليـةَ ، لأنـه شَـافٍ لبعـضِ الأمراضِ العصبية .

ومن تلكَ العجائبِ النادرةِ «اللَّيمون المركـب» ولا يوجـدُ إلا بمصـرَ ، وهو أصنافٌ كثيرة ، ومنه نوعٌ فِي حجمِ البطيخَة ، وهناكَ نـوعٌ مـنَ الليمون أحمر مُستدير ، أكثر حمرة منَ النـارنج ، مفلطَـح مـنْ رأسِـه وأسْفله ، عليه ما يشبه الختم فى هذيْن الموضعيْن ، ولذلكَ يُسـمونه «الليمون المختوم» ومثله غرابة «ليمون البلسم» ومنْ هذَا النـوع مَـا هو قدرُ الإبهَام ، وما هُو قـدرُ البيضـةِ المستطيلةِ ، ومـا هـو مخـروطٌ صحيحٌ ، يبتدئُ من قاعدةٍ وينتهى بنقْطة . وهناكَ نـوعٌ عجيـبٌ مـنَ الثمرِ يُطبخُ بمصر ، وسوفَ ألقى عليكم صِفَاته لتفكـرُوا فيـها ، فـإن عرفتمُوه وإلا أخبرتكُم به .

هو ثمرٌ فِي قدر إبهامِ اليد ، كأنـه صغـارُ القثـاءِ ، شـديدُ الخضـرة ، عليه وبرٌ شَائِك ، وهو مخمسُ الشكلِ ، يحيطُ به خمسـةُ أضـلاعٍ ، فـإذا شُقَّ انشقَّ عن خمسـةِ أبيـاتٍ بينـها حوَاجـز ، وفـى تلـكَ الأبيـاتِ حـب مصطـف ، مستديرٌ أبيض ، لين ، فيه شيءٌ من الحـلاَوة ، وبـه مَـادة لُعَابية ، فما هَذا الثمرُ ؟

سأدعُ لكم فرصةَ التفكيرِ ، لتعملَ أذهانكُم فى جمعِ تلكَ الصفاتِ فربما تصلُ إليه ، وإلا فسوف أخبركم باسمه بعدَ ما أحدثكم عَنْ «خيار شنبر» ، إنكُم ستدهشونَ ، حينما تعلمونَ أن «خيار شنبر» شجرٌ عظيمٌ بمصرَ يشبهُ شجرَ الخروبِ ، له زهرٌ كبيرٌ أصفر ذُو منظرٍ حَسن ، فإذا عَقَد ثمرهُ تدلَّى مثل العِصى الغليظَة ، أما ذلك الثمرُ المخمسُ الذِى ذكرتُ لكم أوصَافه ، فيطلقونَ عليه فى مصر اسم «البامية» وهم يقطِّعونه مع قُشُوره ويطبخُونه باللحم ، فيكونُ طعامًا لا بأسَ به . وهناكَ شجرٌ آخرُ غريبٌ ، سأعرضُ عليكُم أوصَافه ، وأدعُ لكم التفكيرَ كما فعلْتُم بالثمرِ المخمس .

هو شجرٌ تخرجُ ثمرتُه فى الخشبِ ، لا تحتَ الورقِ كغيره ، يثمرُ فى السنةِ سبعَ مرّاتٍ ، ويؤكلُ أربعةَ أشهرٍ ، ويحملُ حملاً عظيمًا ، شَجَرته كبيرةٌ هَائِلة ، إذا فصَدت ثمرتُه أو أغصَانُه خرجَ منها لبنٌ أبيض ، إذا طُلِى به الثوبُ صَبَغه بالأحْمرِ ، وخَشبه يمتازُ بالبقاءِ عَلى الأيام ، والصبرُ عَلى الماءِ والشمسِ ، فما هذَا الشجرُ ؟

لا تفكرُوا فسوفَ لا تعرِفُونه ، لأنه لا يوجدُ فى بِلاَدِكم ، إنه بمصر ، ويُسمى «شجر الجميز» .

هذَا يا أبنائي قليلٌ من كثيرٍ رأيته بمصرَ ، أو حَدثنى عنه الثقاتُ ، وكنتُ مواصِلاً بَحْثِي واطلاَعى ، ولكننى اضطررتُ أن أخرجَ إلى الشامِ لأمرٍ عظيمٍ .

وتذكَّرَ الشيخُ موعدًا كانَ قد ارتبطَ به ، فاستأذنَ طلاَبه ، وأخْبرهم أنَّ الجلسةَ القادمةَ ستكونُ فِى صباحِ الغدِ إنْ شاءَ الله .

مقابلة البطل

فى الصباحِ الباكرِ ، كان الشيخُ فى وسطِ الطلَّاب ، يستعدُّ ليكشفَ الأمرَ العظيمَ الذِى أخرجَه منْ مصرَ ، وبعدَ أن حمدَ الله تعالى وصَلَّى عَلى رسُولهِ صلى الله عَليه وسلَّم ، قال :

فى ذلكَ الوقتِ يا أبنائى ، كانَ البطلُ صلاحُ الدينِ الأَيوبى يدبرُ لاستردادِ عَكًّا وطَرْدِ الفرنج ، ورأى هؤلاء قُوته فطلبُوا الصلحَ وألحُّوا فيه ، وأظهرُوا حُسَن نيتهم ، وعزْمهم على التزامِ الهدوءِ ، فعقدَ معهم هدنةً لثلاثِ سنواتٍ وثمانية أشهرٍ ، كانَ لها رَنة فرحٍ عظيمةٍ ، فخرجَ كبارُ المصريينَ وعلماؤُهم ليهنئُوا البطلَ ، وخرجْتُ معهم ، حتى وصلنَا بيتَ المقدسِ حيثُ كانَ يُقيم المجاهدُ الأعظمُ والتقينَا به .

جلالٌ يا أبنائى ليسَ فَوقه جلالٌ ، رأيتُ فوقَ ما تخيلْتُ ، ملكًا عظيمًا يملأ العينَ روعةً والقلبَ محبةً ، يحفُّ به أصحابُه كالرماحِ المسنونةِ والسيوفِ اللامعةِ ، قد طبعهم بطَابعه فتشَبَّهُوا به ، عَزمًا وقوةً وكرمًا ، وقد حضرتُ أولَ مجلسٍ للوافدينَ عليه ، فرأيتهُ حافلاً بالعلماء ، يتذاكرونَ أنواعَ العلومِ ، ويتناقشونَ فى ألوانِ الفنونِ ، وصلاحُ الدين يحسنُ الاستماعَ ، ويشاركُهم الحديثَ ، ويتشعبُ معهم فى ألوانِ البحثِ ، ويطيلُ فى طرقِ بناءِ الأسوار وحفرِ الخنادقِ ، وَيُدلى فى ذلكَ بكلِّ معنى عجيبٍ وطريفةٍ نادرةٍ ، وكانَ البطلُ فى ذلكَ الوقتِ مهتمًّا ببناءِ سور المقدس ، وحفرِ خندقٍ يُحصنه به ،

فلا يفكر الفرنجُ أن يقـتربُوا منـه ، وكـان يشـجعُ العـاملينَ ، ويتولّـى قيادةَ العملِ بنفسهِ ، وينقلُ الحجارةَ عـل عاتقِـه ، ويذهـبُ إليـها فـى أماكنهَا ، ويحملهَا على دابته إلى موضعِ البناء .



وماذَا تظنونَ يا أبنائى ، والقائدُ أمـامَ جنـدِهِ فـى قلـبِ المعركـةِ ؟ ! ومَاذَا تتخيلُـونَ ، والملـكُ يحمـلُ الحجـرَ علـى عاتقـه ويسـرعُ بـه إلى البناءِ؟ ! وكيفَ يكـونُ موقـفُ الرعيـةِ مـن هـذَا المنظـرِ المثـير ؟ !. إنَّ الجميعَ لاشكَّ سـيندفعونَ إلى التضْحيـة ، وسـينزلونَ المعركـةَ بقلـوبٍ مؤمنةٍ راضيةٍ ، وقد كَان ذلكَ يا أبنائى .

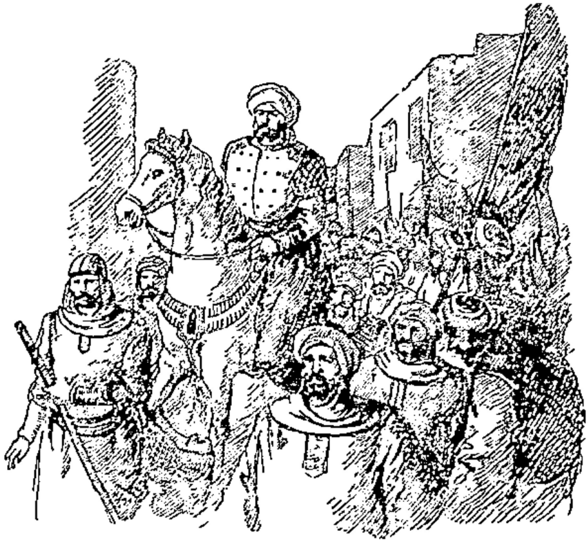
فلمَّا رأوا صلاحَ الدينِ يحملُ الحجـرَ عَلـى كتفـه ، أسـرعُوا جميعًـا ، وعملَ الضعيـفُ قبـلَ القـوى ، والغنـى قبـلَ الفقـيرِ ، والقريـبُ قبـلَ

البعيدِ ، وكان منظرُ الوزيرِ القاضِي الفاضِل - بجسْمِهِ النحيلِ ، مُسرعًا يحملُ الحجارةَ - منظرًا يدفعُ كُلَّ تعبٍ ، ويزيلُ كُلَّ عناءٍ . وكَانَ البطلُ يقضِي يومَه في عملٍ متصلٍ ، فيركبُ قبلَ طلوعِ الشمسِ ، ويظلُّ حتى العصرِ ، ثم يركبُ مرةً أخرى إلى ذلكَ الجهادِ في سبيلِ الله ، ولا يزالُ الجميعُ فِي جِدِّهم ، حتى يدْهمهم الليلُ بظلاَمِه ويكف أيديهم ، فيعودَ القائدُ إلى مجلسِه ، لا ليستريحَ بلْ ليواصلَ التدبيرَ والتفكيرَ ، ويقضِي أكثرَ الليلِ في وضعِ خططِ النهار .

وقد حدثتُ البطلَ يا أبنائى فسرَّ بى ، وشَمَلنى بعطْفِهِ ، وأمرَ لى براتبٍ قدره ثلاثونَ دينارًا ، لأقومَ بالتدريسِ فى جامعِ دمشق ، فرحلتُ إليها ، وقمتُ بالتعليمِ فى مدارسِهَا ، ولم أنقطعْ عنِ القراءةِ والبحثِ ، ثم جاءت البشائرُ تعلنُ أن البطلَ سيزورُ دمشقَ فاستعدَّت المدينةُ لاستقبالِهِ ، وأخذَ الناسُ يدربونَ عُيونهم على النظرِ الجيدِ حتى تحيطَ بأكبرِ مَا تستطيعه من عظمةِ البطلِ وجَلاَله ، وسار صلاحُ الدين ، يمر فى طريقهِ عَلى الحصونِ الإسلامية ، ويأمرُ بإحكامِهَا والعنايةِ بها ، حتى دخلَ دمشقَ فى الخامسِ والعشرينَ من شوال ، سنة ثمانٍ وثمانينَ وخمسمائة منَ الهجرة[1] ، وكانَ دخُوله يومًا مشهودًا.

---

(١) ١١٩٢ ميلادية .



صلاحُ الدين حَامى الإسلام !

صلاحُ الدينِ مُحطم الفرنجَ !

صلاحُ الدينِ بطلُ الأبطالِ !

كانت هذه الهتافاتُ قلوبًا تطيرُ حولَ صلاحِ الدين ، وهو فى موكِبه ، لتكونَ قَريبة منه ، فتتمتعُ بجلالِ البطولةِ وعظمةِ الإخلاصِ والتضحيَة .

ولكن يشاءُ الله لدمشقَ يا أبنائى ، أن تودعَ البطلَ بعدَ قليلٍ وداعًا يفوقُ هذا الاستقبالَ ، وداعًا لا لموقعةٍ يعودُ منها مُظفرًا بعدَ قليلٍ ، ولا لرحلةٍ يتفقدُ فيها مملكته الممتدَّة فى مصرَ والشامِ والجزيرةِ

وغيرهَا ، ولا لتلكَ الحصونِ الكثــيرةِ ، يـأمرُ بإحكامـهَا واليقظـةِ فـى الدفاعِ عنها، ولكنه كانَ الوَدَاع الأخيرَ ...

فقد استيقظَ البطلُ صباحَ اليومِ السـادسِ عَشَـرَ مـن صفـر عـام خمسمائة وتسـعة وثمانين[1] ، وهـو فِـى أكمـلِ صحـة ، باسمًا للحَيَاة ، رَاضيًا بما أنعمَ الله عليه مــنْ محبـةِ الناس ، ومـا انتصـفَ النـهارُ حتـى أحـسَّ بفُتُـور ، ثـم ظـهرتْ عليـه أعـراضُ الحمـىَّ الشـديدَة ، فلـزمَ الفراشَ ، وظلَّ عشرةَ أيـامٍ والمـرض يَشْـتد ، وإذا شـاءَ القـدرُ عَمـى البصر ، فقد تقدَّمَ لعِلاَجه من لا خبرةَ له بالطب ، وفصَده[2] لينقـذه ، ولكنها كانتِ القَاضية ، فخَارت قُـوَاه ، وأسْـلم الـروحَ فـى السـادسِ والعشرينَ مِـنْ صفـر ، والنـاسُ لا يزالـونَ ينعمـونَ بفرحـةِ اللِّقـاء ، ويتحدثونَ بما أظهره الشـعبُ مـن تقديـرٍ للبطولـةِ والأبطـالِ . ولم أرَ يا أبنائى ملكًا حزنَ الناسُ جميعًا لموته ، مثلَ ذلكَ البطلِ أحبـه الـبَرّ[3] والفـاجرُ ، والمسـلمُ والكـافرُ ، ثـم أدخلُـوه قـبرَه ، فـى الـدار التِـى كـانَ مريضًـا بـها فـى قلعـةِ دمشـقَ ، وطَـوُوا عليـه الـترابَ مبلـلاً بدموعِ الودَاعِ .

---

(١) ١١٩٣ ميلادية .

(٢) فَصدَ المريضَ : أخْرجَ مقدارا مِنْ دمٍ وَريده بقصْدِ العلاجِ.

(٣) البرُّ : المقصودُ به هُنَا مَنْ يفْعلُ الخيْر .

رأيتُ يا أبنائى ذلكَ الاستقبالَ وذلكَ الوداعَ ، وفرحتُ فى الاستقبالِ وحزنتُ أشدَّ الحزنِ فى الوداع ، ولكنْ شاء الله أنْ يملأَ قلبى بحزنٍ لاَ تمحُوه الأيامُ ، ولا تزيلُه الأعوامُ ، حزنٌ شديدٌ خلَّفته الغضبةُ القاتلةُ التى حلَّت بمصرَ .

وصمتَ الشيخُ فى تأثيرٍ وأطرقَ الطلابُ ، واستمرت فترةٌ منْ هذا الصمتِ قطعَها صوتُ الأذانِ ، فقامَ الجميعُ إلى الصَّلاةِ ، وقدْ أَذِنَ لهم الأستاذُ فى درسٍ آخرَ بعدَ العشاءِ .

الغضبة القاتلة

جلسَ الطلابُ يفكـرونَ فـى الغضبـةِ القاتلـةِ التـى حلّـت بمصـر ، وملأت قلبَ الشيخِ حزنًا لا يزول ، وشاركَتْ تلكَ القناديلُ المتدليةُ مـن سقفِ المسجدِ ، فزادت خَيَالَهم سـبحًا فيمنْ غضـبَ تلـكَ الغضْبَـة ، وما حلَّ بتلكَ الديار التى يحبونـهَا ، ومـا نـزلَ بـالصُّورةِ البديعـةِ التـى حَدثهم بها الشيخُ ، وصمتَ موفق الدين وهو ينظرُ إلى الطـلابِ كأنـه يشجعُ نفسَه على الحديثِ ثم قال :

كانَ للسلطانِ صلاحِ الدين أولادٌ كثـيرونَ ، يتولّـونَ نواحـى مملكتـه الواسِعَة ، فلما ماتَ استولى كُلٌّ منهم على ما تحْتَ يده ، فاستولَى ابنـه العزيزُ على مصر ، وابنه الأفضلُ على دمشقَ ، ولكن العزيزَ رأى أن يضمَّ إليه ملكَ أبيهِ كُلّه حتى يستطيعَ الوقُوف أمامَ الفرنـجِ ، فجَـاءَ بجندِه إلى دمشقَ وحاولَ أنْ يستولى عليـهَا ، فاسـتنجدَ الأفضـلُ بعمـهِ وأخيهِ وجيرانه ، ورأى العزيزُ أنه لا يقدرُ عليهم جميعًا ، فقبلَ الصلحَ على أن تقسمَ البلادُ بما يُرضيه .

كنتُ بدمشقَ حينذاكَ وقد اشتدَّ شوقِى إلى بلادِ النيل ، فخرجتُ إلى العزيزِ فى ظاهر دمشق ، والتمستُ الإذنَ بالعودةِ إلى مصرَ فاستجابَ لرغبتى ودخلتها مرةً أخرى لأطفئ شوقِى وأعودَ إلى دِرَاستى ، وَرَتَّـبَ العزيزُ لى مكافأةً كبيرةً لأقومَ بالتدريسِ فى الجامعِ الأزهـرِ بالقـاهرةِ ، فـأخذتُ أواصـلُ العمـلَ طـولَ اليـومِ ، وأخلـو فـى الليـلِ إلى نَفْسِـى

وبخثى ، ومكثتُ فى رغدٍ من العيشِ ، حتى ماتَ العزيزُ فى العشرينَ من المحرم ، عام خمسةٍ وتسعينَ وخمسمائة[1] وانتهى ملكُ مصر إلى العادِل أخِى صلاح الدين ، وخَضَعت له الشام وغيرها ، وفى عهدِه شهدَت مصرُ تلكَ المجاعةِ القاسيةِ التى كانَ سببهَا النيلُ وغضبةُ النيل .

فى العام السابعِ والتسعينَ بعدَ الخمسمائة[2] ترقب الناسُ زيادةَ النيلِ ، وانتظرُوا فيضَانه كما اعتادُوا ، لكنهم لم يروا ما يدلُّ على تلكَ الزيادةِ والفيضانِ ، فأصَابهم الخوفُ والقلَقُ ، وطَال انتظارُهم حتى يئِسُوا ، وعلمُوا أنها المجاعةُ لاشك ، وأخذَ كُلٌّ منهم يستعدُّ لليومِ الشديدِ ، وأخفَى التجارُ بضَائعهم كعَادتهم فى كلِّ زمانٍ ، يبحثونَ عنِ الربحِ وإنْ هلكَ الناسُ ، واختزنَ كلُّ إنسانٍ مَا بقى عندَه من القوتِ ليتصرفَ فيه بمقدار ، فارتفعتِ الأسعارُ ، وقلَّت البضائعُ فِى الأسواقِ وجزعَ من ليسَ عنده ما يَكْفيه ، ومنْ يعتمدُ على قُوتِ يومٍ بيومٍ ، وماجَ[3] الناسُ يفكرونَ فى ذلكَ البلاءِ ، وكيفَ يدفعونَ شرَّ الجوعِ والموتِ .

ومرتِ الأيامُ ، واستنفدَ الناسُ مَا لديْهم منَ الطعامِ ، وامحَى ما فِى القرى من النباتِ ، وارتفعتْ أصواتُ البَرَرَةِ[4] والفجَّار بالدعَاء

---

(١) ١١٩٨ ميلادية .

(٢) ١٢٠٠ ميلادية .

(٣) مَاجَ النَاسُ : اخْتلفَتْ أُمُورُهم واضْطربتْ .

(٤) البرَرَةُ : المقصُودُ هُنا أهْلُ الخَيْر .

تستنزلُ رحمةَ الله وعطْفه ، وأخذتِ العيونُ تنظرُ يمينًا ويسارًا تبحثُ عن القوتِ ، وأسرعَ بعضُ الناسِ بالهجرةِ إلى الشامِ والمغربِ ، وامتلأتِ الطرقُ بالراحِلينَ الحائرينَ ، كل يسألُ صَاحبه أينَ يتوجَّه ، وكيفَ رأى أن يفرَّ منَ الموتِ . ولم يَهُن الوطنُ على آخرينَ ، فهاجَروا إلى القاهرةِ هَائمينَ على وجُوههم ، فاشتد بها الغلاءُ فوقَ ما كانَ ، وزادتْ سطوةُ الجوعِ حتى بلغَ أقصَاه ، وانضمَّ إلى ذلكَ البؤسِ وباءٌ شديدٌ امتدَّ في جميعِ البلادِ ، فقضَى على البقيةِ القليلةِ من الأيدِي العَاملة ، وألقى الناسُ أجسَامهم عَلى الأرضِ لا يستطيعونَ السيرَ ولا يقوُونَ عَلى الحركةِ ، وأخذَ الجوعُ يفترسُ المئاتِ ، فاشتدَّ تَلَفت الجائعينَ يبحثونَ عن المنقذِ من ذلكَ المصيرِ .



وألجأتِ المجاعةُ الناسَ إلى أنواعٍ كَثيرةٍ من الجرائم ، مثل القتلِ والسلبِ فى جميعِ الجهاتِ ، ولاسيَّمَا فى طريقِ الفيومِ والإسكندريةِ ، فقد كانَ بطريقِ الفيومِ جماعةٌ لهم مراكبُ يخدعونَ الناسَ بالركوبِ فيها ، لأنهم جَعَلُوا أجرتها أرخصَ من غيرهَا ، حتى إذا توسَّطُوا بهم الطريقَ ذبحوهم واقتسمُوا أموَالهم .

ومنَ العجيبِ يا أبنائى أَنَّ بعضَ الناسِ قد وصلُوا إلى الثروةِ فى تلكَ المجاعةِ ، بعدَ أنْ كانُوا فُقراء لأنهم اتَّجروا فى أقواتِ العبادِ ، وأغْلُوا الأسعارَ ، ومنهم منْ حَسُنت حَالُه بأسبابٍ غيرِ مَعْروفة .

وكأن المصائبَ كانتْ مُتحالفة على مصرَ فِى تلكَ الأيام ، فانضمَّ إلى المجاعةِ بلاءٌ جديدٌ ، فقد هبَّ الناسُ من مضاجعهم ذاتَ ليلةٍ هائمينَ عَلى وجُوههم ، والأرضُ تتحركُ منْ تَحْتهم كما تخفقُ أجنحةُ الطيرِ ، مُعتقدينَ أنَّ القيامةَ قد قَامت ، وكان ذلكَ زلزالاً شديدًا ، هدّمَ منَ البناءِ ما كانَ ضعيفًا وأسقطَ ما كانَ عاليًا ، وخَرَّبَ الدورَ وحطَّمها ، وشمِلَ مصرَ منَ الصعيدِ إلى دمياط والإسكندرية وبلاد السَّاحل كلها، كما وصلَ إلى بلاد الشام وهدَّم كثيرًا من أبنيتها ، وقد سمعنَا عن هذِه الزلزلةِ أنها فَرَّقت ماءَ البحرِ ، حتى رَسَتْ السفنُ على الأرضِ ، وقذفَ البحرُ بسَمَكه عَلى السَّاحل ، واقترنتْ هَذِه الزلزلةُ ببردٍ شديدٍ ، ثم تبدّلَ ذلكَ البردُ فى النهار إلى حَرٍّ شديدٍ تضيقُ منه الأنفاسُ .

هَذِه بعضُ آياتِ الله البيناتِ ، يُظهرهَا للنـاسِ عظـةً وعـبرةً ، وقـد رأيتُ فى تلكَ المدةِ من عجائبِ الكائناتِ ، شَاةً ولدَت سَخْلَةً لهـا ضـرعٌ يخـرجُ منـه اللـبنُ كـالخيطِ الدقيـقِ ، وقـد أُحضـرت بـدار الـوالى عـدة مرّاتٍ ، وآخر مرةٍ كانت قد بلغَت أربعةَ أشهرٍ وهى علَى حَالها ، واللـبنُ يخرجُ منْ ضرعهَا ، كما شاهدتُ مولودًا برأسَيْن ، وَطفـلاً وُلِـدَ أبيـض الشعر ، وَبغْلَةً ولدَت ولدًا ميتًا ، وأُحضر بدار الـوالى واسـتمرَّ أيامًـا ، والناسُ ينظرونَ إليه ويعجبونَ من صُنْعِ الله .

ومكثتُ يا أبنائى مدةً وصورةَ المجاعةِ تُفزعني ، ثُمَّ تَغيَّرتِ الأحـوالُ فرأيتُ أَنْ أغادرَ مصرَ .

وأنطلقَ صوتُ المؤذنِ فقطعَ حديثَ الشيخ ، وكانَ الطـلابُ يـودونَ أن يعرفُوا أينَ توجّه ، ثم قامُوا إلى الصلاةِ بعدَ أن حدَّدَ الشيخُ موعدَ الجلسةِ القادمةِ فى صبَاحِ الغَدِ .



العـــودة

أصبحَ الصباحُ ، فأسرعَ الطلابُ والتفُّوا حولَ الشيخِ ليعرفُــوا أيـنَ توجه ، وصمتَ الأستاذُ طويلاً فى هذِه الجلسةِ عَلى غيرِ عَادته ، كأنه يقلبُ فى رأسِه أمرًا ثم قالَ :

عـدتُ يـا أبنــائى إلى بيــتِ المقـدسِ ، وأقمــتُ بــه مــدةً ، أُلقــى عَلـى الطـلاَّبِ مـا وَفَّقنِـى الله إليـه ، ثـم ذهبـتُ إلى دمشـقَ فـى العـامِ الرابعِ والستمائة مِنَ الهجرة[1] وقمتُ بالتدريسِ بالمدرســةِ العزيزيَّـةِ ، ثـم اضطربـتِ الأحــوالُ واشــتدَّت غــاراتُ الفرنــجِ عَلــى الشّـام ، فـتركتُ دمشـقَ إلى بلدتِكُـم هـذِه ، ولم أطـل المقــامَ بــها ، وغَادرتــها إلى بـلادِ الـرُّوم ، ونزلـتُ علـى الملـكِ عَــلاء الديــنِ دَاود بـنِ بــهرام ، صـاحبِ أرزنجان ذاتِ الخـيرِ الوفـيرِ والهـواءِ الجميـلِ ، ولكـنَّ الأحــوالَ بها تَغَيَّرت فخرجتُ منها إلى غيرهَا ، وما زلتُ أتنقلُ من بلـــدٍ إلى بلـدٍ ، لا أستقرّ ، ولا يطيبُ لى المقام ، حتى عــدتُ إلى مَدينتكـم مـرةً أُخْـرى يـومَ ا لجمعـةِ التاسـعِ مـنْ شـوال ، عـام سـتمائةٍ وخمسـةٍ وعشــرينَ منَ الهجرة[2] .

- عَـوْدٌ حميـدٌ يـا سـيدى الشـيخ ! مرحبًا بالعـالِم الجليـلِ . إقامــةً موفقةً يا أستاذِى !

---

(١) ١٢٠٧ ميلادية .

(٢) ١٢٢٧ ميلادية .

- شكرًا لكم يا أبنائى ، ولقد كنتُ أودُّ الإقامةَ بينكُم مدةً طويلــةً ، ولكنى بلغتُ من العمرِ مَا بلغْـتُ ، وطفـتُ ببـلادِ الإسـلام ، ولم يبـقَ لى إلاَّ أمنيةً عزيزةً أرجُو أن يكونَ الله قد أذنَ لى بها ، وهـى حَـجُّ بيـتِ الله الحرَامِ ، وزيارةُ قبرِ رسُولهِ عليه الصَّلاَة والسَّلاَم ، ولكنْ لى هـوى فـى بغدادَ لأرى دربَ الفالوذج ، وأزورَ قبرَ والدتِى ووالدِى وعمــىِّ وَجَـدِّى ، وأشاهد وَطَنى الذِى عشتُ بعيــدًا عنـه ، غريبًـا فـى غـيره ، وإن كـانَ العَالِمُ لا وطَنَ له ، لأن البلادَ كُلَّهَا وَطَنـه ، وفـى اعتقَـادِى أننـى حـين أفارقكُم سوفَ أُودعكُم الوداعَ الأَخِير .

- عمـرٌ مديـدٌ يـا أسـتاذنَا الجليـلَ ، أبقـــى الله علْمَــك ! لا حرَمتَـا موَاهِبَك !

- شـكرًا لكـم يـا أبنـائى فـإنى أعلـمُ مَـا فـى صُدُوركـم مـن المحبـةِ لشيخِكُم ، ولقـد حملـتُ أمانـةَ العلـمِ ، ولم أتـوانَ يومًـا عـنْ أنْ أفيـدَ وأسْـتفيدَ ، وأحمـدُ الله عَلـى أنْ حمـلَ هـــذِه الأمانـــةَ عَنِّـــى الكثـيرونَ الأذكياءُ ، والعلماءُ لا يموتونَ يا أبنائى ، بل يخلـدونَ فـى آثـارهِم الباقيـةِ وعلْمهم النَّافع ، والعالمُ الحقُّ من يضعُ لبنةً فى بنـاءِ العلـمِ العظيـمِ ، وقد وضعتُ بحمـدِ الله لبنـاتٍ كَثيرة ، لا أطلـبُ مـن ورائـها إلاَّ المغفـرةَ والرضوَان .

ولم يستطع الشيخُ أن يتـمَّ حديثَـه ، وخنقتـه العـبراتُ فـالتفتَ إلى تلاميذِهِ قـائلاً : «جلْسَـتنا القادمـةُ فـى صبـاحِ الغـد ، ولتكـنْ جلسَـة الودَاع إن شَاء الله !» .

الـوداع

عَلِمَ النـاسُ فـى المدينـةِ بعـزمِ الشـيخ عَلـى السـفرِ إلىَ بغـداد ، فأسرعُوا يرجُونه أن يقيمَ بينهم ولا يحرمَهُم عِلْمه وطِبّه ، لكنه عقـدَ العـزمَ فلـم يفـدْ معـه رجَـاء ، وقَضَـى ليْلتـه يعـدُّ للرحْلـةِ ، وَيُـودِّعُ الأصدقاءَ والأحبَابَ . وفى الصباحِ ذهبَ إلى تلاميـذِه ، فوجـدَ المسـجدَ غاصًّا بالناسِ فجلَسَ كما يجلسُ كُلَّ يوم ، ثم نظرَ منْ خلـفِ الدمـوعِ المترقرقةِ فى عَيْنيه ، فوجدَ تلاميذَهُ نَاكِسـي[1] الـرءُوس ، لا يسـتطيعُ واحدٌ منهم أنْ يتكلّم أو ينظـرَ إلى الشـيخِ . وحـاولَ مُوفـق الديـن أن يتحدَّثَ، ولكنَّ العبارةَ استعْصَت عَليـه ولم يسـتطعْ إلا أنْ يقـولَ فـى صوتٍ مُختنق بالدُّمُوعِ : «الودَاع يا أبنائى !» .

ثم وقفَ ، وانهالَ الطلابُ عَلى يَـده يقبلونـهَا فـى حَـرَارة ، ومنـهم من كانَ يستوقفهَا عَلى فَمِه لحظاتٍ ثم يعيدُ تقبيلهَا ، وغـادرَ الشـيخُ المسجدَ وسارَ فى موكبٍ كبيرٍ منْ طُلاَّبه ومُحبيه ، ثـم ركـبَ وتحرَّكَـت القافلةُ فألقَى بيدِهِ السلامَ الأخيرَ ، وتتبعتهُ الأنظارُ حتىَّ غابَ .

سَار عبدُ اللطيفِ إلى مَقرِّ الخليفةِ ، ومُستقر وَالدِه وَوَالدته وعمـه وجده وأُسرته ومسْقط رأسه ، ليقيمَ قليلاً ثم يخرج إلى الحجِّ ، فيعـودَ موفورًا من المغفرةِ التِى أتمَّ بها طَوافه فى بـلادِ الإسـلامِ ، ولمـا وصـلَ بغدادَ أسرعَ إلى قبرِ والدَتِه ووالدِه ، ولم يتمـالكْ نفسَـه وذرفَ دمُوعَـه

---

(١) نَكس الشيء نكْسًا : قلبه ، ونَكَس رأسه : طأطأَهُ من الخزى .

علـى تلكَ القبـور ، تحيـةَ اللقـاءِ بعـدَ خمســةٍ وأربعــينَ عامًــا فــارقَ فيهَا بغداد .

وأسرعَ الناسُ لاستقبالِ الشيخِ العظيمِ الماهرِ ، الذى ملأتْ شُهرتُهُ الآفاقَ، لكنَّ عبدَ اللطيفِ كانَ ينادِى منْ عالمِ الغيبِ ، ليرقدَ بجانبِ أهلِهِ الرقدَةَ الأخِيرة ، فوافاهُ أجَلُه فى بغدادَ يومَ الأحدِ الثـانِى عَشَـرَ مِـنَ المحـرمِ ، سنةَ تِسْعٍ وعشرينَ وستمائة ، ودفن بجوار آبائِهِ الصالحين الأبرارَ .



رقم الإيداع	٢٠٠٤/٨٤٨٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6653-1

٧/٢٠٠٣/٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

مجموعة قصص الرحالة والمكتشفين

هذه المجموعة كانت تنتظرها المكتبة العربية من زمن بعيد . . . إنها تصور لنا رجالا من جميع العصور ومن الشرق والغرب ، خاضوا غمرات البحار ، وضربوا فى مجاهل الأرض ، لا يقف فى سبيلهم محيطات متلاطمة الموج ، ولا صحارى قاحلة ، ولا جبال شاهقة ، ولا مساحات الجليد المنبسطة فوق المناطق القطبية المتجمدة . . . ليكشفوا للعالم عوالم جديدة وأرضاً جديدة وشعوباً جديدة بعاداتها وتقاليدها وغرائبها .

إن هذه المجموعة الطريفة الشائقة المحلاة بالرسوم والمزودة بالخرائط ، والمكتوبة بأسلوب قصصى جذاب ، تحكى لنا قصص هؤلاء الرحالين والمكتشفين ، فيستمتع بها الناشئة والكبار على السواء .

● ظهر منها

١ – خوف حر	للدكتور عبد العزيز عبد المجيد
٢ – فاسكو دى جاما	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٣ – عبد اللطيف البغدادى	للأستاذ عبد السلام العشرى
٤ – ولتر رالى	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٥ – عمر التونسى	للدكتور عبد العزيز عبد المجيد
٦ – الكابتن كوك	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٧ – المسعودى	للأستاذ عبد السلام العشرى
٨ – الكابتن سكوت	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٩ – ماركو پولو	للأستاذ إبراهيم أسعد
١٠ – بيرى	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
١١ – منجوبارك	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
١٢ – المقدسى البشارى	للدكتور عبد الفتاح شلبى
١٣ – ماجلان	للأستاذ مترى أمين

١٣ قرشاً ج . ع . م .	١٣٠ فلساً فى العراق والأردن	١٨٢ فرنكاً فى المغرب
١٠٤ ق . ل	١٣٠ فلساً فى الكويت	١,١٣ ريالا سعودياً
١٣٠ ق . س	١٥٦ مليماً فى تونس	٢,٧ شلناً } فى البلاد
١٣٠ مليماً فى ليبيا والسودان	١٨٢ فرنكاً فى الجزائر	٠,٣٧ دولاراً } الأخرى